رُوهَنْدَا

ROhNdA

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: رُوهَنْـدَا
تـأليـــــــف: هَيْثَمُ القَلْيُوبِي
القـطـــــع: 14*20
رسومات: أحمد غريب
سنـة النشـر: 2024
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 20655 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 546 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ /
ISBN 978-977-844-546-6
shahmda77@gmail.com
9 789778 445466

رواية

رُوهَنْـــــــدَا

ROhNdA

هَيْثَمُ القَلْيُوبِي

إهداء

إلى "رُوهندا"، صَنِيعَةِ خَيَالِي.. كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَلْقَاكِ في عَالَمِي الذي يَمُوجُ بالطُّغَاة.

إلى أُستاذِي الكاتب الصحفي/ نَبِيل مِصِيلحي.

١

تنهَّدت "روهندا" في خريفها الثالث والستين، وندت من فمها صرخةً مكتومةً تخالج أنفاسها المُتعَبة من قسوة ماضيها المُفعم باليأس والوجع. وتجلَّت على وجهها تجاعيد سنوات عذابها وبؤسها، ومدائن أحزانها ووهن أوصالها. ثم جلست على فراشها، وقد افترستها الهواجس والهلاوس، وأخذت تهذي وتناجي أعماقها بصوتٍ خافتٍ مرتجفٍ:

- قتلوني وأطلقوا الخوف بداخلي.. قتلوني وقتلوا الحياة في جسدي السقيم.. قتلوني واجتثّوا غصون الرحمة واغتصبوا الأجنَّة في أرحام الأمهات.. قتلوني وتركوا الموت ينعق فوق أعشاش وطني.. قتلوني وتركوا خيولهم الهوجاء تركض وتُعَرْبِد فوق فتات أشلائي.. قتلوني حتى فار دمي المسفوك في يم الغدر والخسة.

صمتت برهة تتأمل ذكرياتها، ثم همست بصوتٍ يمزق سدول ماضيها:

- عدا الماضي وأحزانه، كل شيءٍ يمضي إلى محراب العدم. الساعات تجرني جرًّا وتسحق هامتي وتلقيني خلف قضبان الوجع، والدقائق تصفعني بذكرياتي الحزينة، والثواني تعاندني تارةً وتسبيني في وهدة التعاسة الأبدية تارةً أخرى، والعمر بساعاته ودقائقه وثوانيه ماثل أمام ضريح الأيام ضريرًا، يتكئ على قبح أفعال من وثقنا بهم.

انتفضت "روهندا" من فراشها وهي تئن أنينًا خافتًا لا يتجاوز صدرها. ثم هرولت بخطى مثقلة بالوجع إلى باب غرفتها في مستشفى

"كيجالي" العسكري، حاولت فتحه مرارًا لكنها فشلت وتعثَّرت. انزوت بجسدها السقيم في ركن الغرفة وشملتها بنظراتها الزائغة. شعرت بأن المكان يضيق بها، وأن جدرانه تطبق عليها. انكمشت بجسدها وتكوَّرت، وبدأت أوصالها ترتعد، وأنفاسها توغر صدرها. شهقت كشهقة غريق يرجو الحياة، ثم همست بصوتٍ مبحوحٍ مرتعشٍ، كأنها تبوح بأسرارها الدفينة إلى سجانها:

- هأنذا أحيا حياتي دون اكتراث، أحياها كأضغاث أحلام، دومًا تنتهي بالخزي والوجع. حتى مشاعري ثارت على صمتي وصبري، واتَّهمتني بالتواطؤ مع قسوة الأيام.

غلبها الحزن وفاضت مشاعرها بالأسى، ثم صاحت تسأل نفسها:

- كيف لي أن أُهتم بحياتي؟ وهي تتأرجح في أمواج الظلم والقهر والاستبداد.

استولت الحيرة على أوصالها، واقتلعت ما تبقَّى من هدوئها وسكينتها، فصاحت بصوتٍ حانقٍ:

- الحياة ليست سفينة نوح، بل هي رحلة مُتقلّبة تُبحر بنا في عُباب الظلم والقهر. أحيانًا ترسو بنا على شواطئ الأمل والعدل. الحياة ليست عادلة طالما مصبوغة بظلم الإنسان. الحياة ليست الفردوس طالما جوارح طواغيتها تقتات من أجسادنا الهزيلة.

انكمشت بجسدها أكثر، وتسارعت خَفَقات قلبها أكثر فأكثر، وتَرَدَّدَ صوت أنفاسها في جدران صدرها حتى فاض إلى أذنيها. ارتجف جسدها، وغاصت ببريق عينيها تتأمل أناملها المرتعشة، ثم همست بصوتٍ مرتعشٍ وأنفاس منهكة:

- في قلبي ألفُ وجعٍ ووجع، وألفُ همٍ وهم، أُتلُوها على نفسي كلما ضاقت بيَ الدنيا. أضحكُ وقلبي ينفطرُ منه الحزن. أكتمُ يأسي وخوفي بين ضلوعي، وأحاولُ المضي في دروب الحياة وأنا مرفوعة الهامة، لكني في حقيقة الأمر، أمضي في دروبها الكريهة وأنا أجرجر خلف ظهري ذاك الماضي البغيض بذيول خيبته.

هامت على وجهها، وبدا لها مشهد ذبح زوجها كأنه حدث في التو واللحظة أمام عينيها. ثم استرجعت صرخات ضعفها وهي تستغيث وتتوسل إلى الوغد "كابوجا" أن يمنحها سكينة الموت. اغرورقت عيناها، وشيئًا فشيئًا فاضت دموعها كالسيل المنهمر. استغرقت في البكاء حتى تورمت عيناها ونال منها التعب. انزوت في جدران الغرفة واحتمت بها، توقفت عن البكاء والصياح والهمس، كأن شيئًا ما قد ألجمها وأفقدها القدرة على البكاء والنطق.

هبَّت من مكانها مذعورة، جابت الغرفة ذهابًا وإيابًا كأنها تهرب من ملاحقة الوغد "كابوجا"، ثم وقفت في وسط الغرفة، وقد انتابتها نوبة صياح وبكاء هستيرية. ظلت تصرخ بلا هوادة بصوتٍ حزينٍ يمزق أنينه أنين الوجع:

- ابتعد عني أيها الوغد الحقير، ابتعد عني وإلا قتلتك.

اندفعت نحو الطبيب "أوجين" واختبأت خلف ظهره، ودفنت وجهها الشاحب بين أناملها المرتجفة من شدة رعبها. استجارت تستجديه وتتوسل إليه، وهي ترتجف كورقة شجرة في خريف عاصف:

- أرجوك أيها الطبيب أبعده عني! أرجوك أبعد هذا المجرم الذي يلاحقني ويحاول قتلي! أرجوك أنقذني من شرّه!

تلفَّت الطبيب "أوجين" من حوله، ومدَّ يديه إليها كأنه يحاول حمايتها من كل مكروه. ضمَّها في حنايا صدره مترفقًا بحالها، وجثا بها على الأرض، وهدهدها بصوتٍ هادئٍ، وحثَّها على الهدوء، محاولًا طرد شبح الخوف الذي يطارد أعماقها:

- لا تخافي، يا أُمَّاهُ.

انكفأ أديم وجهها، ولاحت في عينيها المخضبتين بالدموع هالات خوف وحزن مخبأة بداخلها. غمرها الطبيب "أوجين" بنظراته الحانية. لكنها ثارت في وجهه، وصرخت صرخات هائجة تحفر في مدارات أحزانها أبوابًا:

- كيف لا أخاف وقلبي يملأه جراح المهانة النازفة وآلام الذل التي لا تهدأ؟ كيف لا أخاف وأنا أحمل في نفسي بحرًا من الأسى، وأحمل على كاهلي عبء معاناة أمتي؟

تنهد الطبيب "أوجين"، ثم همس قائلًا:

- يا أُمَّاهُ، الحياة لا تستحق إهدار دمعة واحدة من عينيكِ، فهي والعدم سواء. وأنا أثق في قدرتك على النهوض من هذه الوعكة.

لانت قسمات تجاعيدها، وهدأت أوصالها المرتجفة، وهمَّت بالنهوض. انتفض الطبيب "أوجين" من مكانه مُسرعًا، وأمسك بيديها وساعدها على الوقوف. تأملت ملامحه البريئة بعينيها الحادتين، كأنها تنظر في أعماق روحه، ثم سألته بتحدٍّ:

- صرخاتنا الهزيلة لم تُحرك ساكنًا في أفئدة القتلة عندما هَمُّوا بقتلنا وذبحنا بلا رحمة، أليس كذلك أيها الطبيب الطيب؟!

ولَّى الطبيب "أوجين" وجهه بعيدًا عنها، محاولًا إخفاء توجسه وغصة نفسه، ثم أجابها على مضض بصوتٍ متلعثمٍ:

- أنتِ محقة، يا أُمَّاهُ.

راقبته وراقبت نظراته المرتبكة، وإيماءات وجهه، وردَّة فعله، ثم واجهته بنبرات صوتها المهترئ:

- صرخاتنا الهزيلة كانت طوق نجاتنا الوحيد؛ فظللنا نصرخ ونصرخ ونستغيث من جورهم، لعلهم يرحمون ضعفنا، وضعف صرخاتنا، أو يمنحونا حقَّنا في الحياة، لكنهم للأسف قتلونا وذبحونا كالأضاحي.
- يا أُمَّاهُ، الماضي ولَّى وانقضى بكل أحزانه.

صاحت فيه:

- كيف؟ والقتلة مازالوا يلهثون وراء عفونا وصفحنا بعدما اغتصبوا إنسانيتنا، دون ندم أو تأنيب ضمير.
- يا أُمَّاهُ، القاتل دومًا خبيث وماكر، لا يحمل الحب ولا الود في جنبات قلبه لأحد. هو دنيء النفس، ونفسه مرتع لكل الشرور.

هزَّ الغرفة وقع دبيب أقدام تدبُّ على صعيدها، مُحطمةً هدوءها المُطبق. زاغت بعينيها الشاردتين، حتى استوقفها "جيف" الذي دخل للتو خلسة، بقامته المُعتدلة ووجهه الناصع بالبياض. وقف في أقصى الغرفة يراقب الموقف. التفتت إليه، فالتقت عيناها بعينيه الزرقاوين المُفعمتين بالخجل. ارتابت منه وانتابها الفزع، وعاودتها نوبات الهلاوس والأوهام، صرخت وهي تشير إليه:

- أيها الطبيب، انظر هناك.

شردت نظرات الطبيب "أوجين" إلى أفق مداه، ثم سألها في حيرة ودهشة:

- أين يا أُمَّاهُ؟!

عضت على أناملها، وأشارت إلى الشرفة، وصاحت تتلوى من الخوف:

- انظر إلى الوغد، إنه يركض نحوي ويحاول النيل مني.
- أين هو، يا أُمَّاهُ؟
- إنه واقف كالشبح وسط ظلام الليل، يتدثر بظلمته، انظر، إنه يحدق فيَّ بنظراته الغاضبة.

تحسَّست قسمات وجهها، كأنها تتحسس ندوبه. فجأةً، شعرت بالذعر والارتباك، حاولت الفرار من بين يدي الطبيب "أوجين"، لكنه أمسك بها برفق وحزم، ثم أعادها إلى فراشها. وأجلسها عليه، ومسح على كتفيها بعطف، ثم ناولها بعض الأدوية المهدئة. ترددت قليلًا، لكنها تناولتها على مضض. هامت بنظراتها في الشرفة وهي تخاطب خوفها بصوتٍ مهزومٍ:

- تتوارى خلف ظلام الليل أحلامنا البريئة، لكن ليل بلادي دومًا يأتي بالموت، وظلمته الموحشة هي من رسمت نكبتنا.

تلاعب الكرى بأجفانها، واسترخى جسدها الواهن، وغاصت عينيها برهة رغمًا عنها في لُجَّة نوم عميق، لكنها رفَّت بجفنيها واعتدلت بجسدها، ورجَّت رأسها في اتجاهات متعاكسة، تناضل وتراوغ سكرات الكرى. تعلقت عيناها "بجيف"، تفرَّست ملامحه

بامتعاض ونفور، حتى تلاشت صورته المذبذبة من بصرها الزائغ. ثم صاحت في الطبيب "أوجين" بصوتٍ حادٍّ:

- أيها الطبيب، انظر إلى هذا الشيطان الأبيض؟!

ضحكت بسخرية، ثم همست بصوتها الناعس:

- حتى الشياطين تحاول خداعنا بارتداء ثوب الملائكة.

خطا "جيف" بضع خطوات نحوها، حتى استقر بجوار الطبيب "أوجين"، غاص ببصره في وجهها العتيق يتأمل تجاعيدها الموصومة بأخاديد الدهر، واستحلت نظراته كل جوارحها وأغوارها؛ فأثارت بداخله شعورًا غامضًا من الفضول، وأوقدت في عقله الثائر أسئلة لا حصر لها بلا أجوبة، رغم رجاحة عقله وحدة تفكيره. افترت شفتاه عن ابتسامة رقيقة، مُرتبكًا، لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل. همس بصوتٍ خافتٍ:

- كيف حالك اليوم، سيدة "روهندا"؟

تجاهلتْه، دون أن تُجيبَه بكلمة واحدة، تاركةً صمتها يعبر عن عدم اهتمامها به. وبعد برهة من الصمت، بدا عليها تأثير الأدوية المهدئة واضحًا، فاستسلمت لشعور عميق من الهدوء، وبدأت عيناها تغط في سحابة من الغفلة، وارتسمت على وجهها طمأنينة وسكون عميق كمياه بحيرة صافية. في تلك اللحظة، همس الطبيب "أوجين" في أذنها بصوتٍ هادئ:

- السيد "جيف" جاء..

لم تمهله فرصة الرد، وأجابته بصوتها الناعس:

- يا بني، هذا الشيطان جاء للاطمئنان على حاله وليس حالي.

ابتسمت بسخرية، ثم هزت رأسها قائلة:

- هذا الشيطان الأبيض جاء إلى هنا وهو يتوهم أنني ما زلت على قيد الحياة، لكني في حقيقة الأمر أسكن جسدًا ميتًا في لحود الأيام، وما زلت أبحث عن جسدي التائه بين قصور الأحياء.

اقتنص "جيف" الفرصة، وجلس بجوارها وأحاطها بهالة من الوقار، ثم أجابها قائلًا:

- يا أختاه، كلنا وقت الضعف نهرع إلى دروب اليأس، وتسبينا دوامة الأحزان.

لمزته، وولت بوجهها بعيدًا عنه، ثم أجابته وكأنها تغرقه في أمواج من التيه:

- ما زال القتل والذبح يقلق ساعات ليلي، وهأنا قد كرهت الركض خلف عذابات الماضي وأوجاعه.

تلاطمت أنفاسه بين شهيق وزفير، وتاهت أفكاره في متاهة من التساؤلات، حتى غرق في بحر من الحيرة، وانهارت ثقته بذاته. عندها، اتجه إليها بنظرة حائرة، قائلًا:

- الحياة هي الحياة، يا أختاه، ونحن مجبرون على العيش فيها ما بين صراع وصراع، ما بين شر وخير، ما بين حق وباطل. الحياة كالزهور تتفتح في ظل المطر، وتذبل تحت وطأة العواصف. الحياة فيها من الجمال ما يكفينا، وفيها من القبح ما يكفي لهدم جمال أرواحنا.

استلقت على فراشها، وهي تردد:

- نحن من نخط كتاب أعمارنا بالخير أو الشر، ونحن أيضًا من نصنع أشرعة الحياة أو سفن الموت.

أغمضت عينيها وغمرها النعاس، وتقطعت كلماتها بين شفتيها، ثم همست بشق الأنفس:

- أنا متعبة، أحتاج إلى الراحة.
- لا عليك، يا أختاه، لكني أرجو منك رجاءً أخيرًا.
- أي رجاء؟!

تلعثم "جيف"، وتلعثم فكره، وبعد برهة همس بصوت يملأه التمني:

- أودّ التحدث معكِ أكثر من ذلك، فهل تمانعين؟

أومأت إليه برأسها، وسرعان ما أغمضت عينيها الذابلتين، وغاصت في نوم عميق. تركها "جيف" من خلفه وخرج إلى الرواق يكتم ما في نفسه من وجع وحزن، ظل واقفًا مستغرقًا يتأمل سكون الليل حتى خرج الطبيب "أوجين"، هرول إليه وسأله بحسرة:

- أشعر بالقلق تجاه السيدة "روهندا"، فهلا أخبرتني بما تعاني؟

تنهَّد الطبيب "أوجين" بثقل، وارتسمت على وجهه علامات الأسف، ثم همس بصوتٍ خفيتٍ متعبٍ:

- الأم "روهندا" واجهت أقسى صنوف العذاب والقهر، وآلامها متجذرة في أعماق روحها، ويكفيها من هذا العذاب أنها رأت بأم عينيها مقتل كل أفراد عائلتها. الأم "روهندا" خاب أملها في الحياة، وانقطعت بها سبل الرجاء في إدراك الراحة، بعدما تلاعبت بها

الأيام وجرعتها مرارة كؤوس اليأس والبؤس، وناءت بها الأوجاع في مدارات المرض.

تجهمت قسمات وجه "أوجين" وتملكه الضيق وفاضت دموعه على وجنتيه. أغدقه "جيف" بنظراته الحانية، محاولًا نزع يأس قلبه، فهمس قائلًا:

- هون على نفسك.

تحول صوت الطبيب "أوجين" إلى همس ممشوج بالبكاء، ثم أجابه قائلًا:

- صدقني أنا بخير، والأم "روهندا" بخير.

تنهد "جيف" وأسدل جفنيه، قائلًا:

- أتفهَّم مشاعرك تجاه السيدة "روهندا"، فمن الواضح أنها واجهت الكثير من صعوبات الحياة وقساوة الأيام، ولا شك أنها تملك قوة داخلية تُعينها على مواجهة المرض. لكن صف لي مرضها، وأخبرني عن حالتها الصحية الآن.
- صدقني الأم "روهندا" قادرة على تخطي تلك المحنة.

لم يستطع "جيف" إخفاء قلقه المتزايد، فسأله بلهجة حائرة:

- لكنها خائفة ومضطربة وهزيلة وتتوجع!
- صدقني هي بخير، ولا تعاني من مرض عضال حتى تتألم وتتوجع.

شذر إليه "جيف"، وصاح فيه:

- الألم لا يحتاج إلى صوت مسموع حتى نشعر به.

تأسف الطبيب "أوجين"، قائلًا:

- أنت محق، سيد "جيف"، لكني أتكلم من الناحية الطبية لا أكثر.

أخفى الطبيب "أوجين" مشاعره وربت على كتفه، وأخبره بثقة قائلًا:

- لا تقلق على الأم "روهندا"، هي قوية، وحتمًا ستتجاوز محنتها في أسرع وقت. صدقني أنا أثق في ذلك.

صمت "جيف" وأشرقت عيناه ببريق دامع، ثم همس قائلًا:

- وأنا أثق بك.

ازدرد "جيف" ريقه، ومسح على جبينه، وتساءل قائلًا:

- من يعتني بالسيدة "روهندا"؟
- كلنا نعتني بالأم "روهندا"، لكن الأب "أرنست" راعي كنيسة "نجوما" تعهَّد بخدمتها، وأخذ على عاتقه رعايتها منذ أمد بعيد.

قضت نبرات "جيف" بإنهاء الحديث قائلًا:

- أخبرني أيها الطبيب، متى يمكنني التحدث إليها؟
- سأتواصل معك فور شفائها.

ابتسم "جيف" قائلًا:

- وأنا في انتظار تلك اللحظة.

صافح "جيف" الطبيب "أوجين" بمودة، وشقّ طريقه في أروقة المستشفى المزدحمة، حتى ذاب واختفى بين أنين المرضى. خرج من بوابة مستشفى "كيجالي" العسكري الرئيسية، وانتظر أمامها وهو واجم النفس شارد الذهن. بعد برهة، أشار إلى سيارة أجرة، استقلها بجسده

المجهد، جلس بمقعدها الخلفي وأغمض عينيه المكحلتين بالكرى، غاص في بحر أفكاره المتشابكة وتاه في مدارات اللاوعي. حتى وصل إلى فندق إقامته "راديسون بلو"، صعد إلى غرفته وبدَّل ملابسه وأشعل سيجارته، ثم استلقى على فراشه الوثير يترجى الراحة من مأخذ التعب، ووأد مواقد هواجسه في وهدة سكون الليل.

ظلَّ "جيف" يتقلَّب على جنبيه يسامر هموم أثقال مهمته التي فرَّقت بين جنبيه ومهاده، وأرهقته مراود أرقها وقلقها. ثم استلقى على ظهره وهو يمعن النظر في سقف الغرفة ويتأمل معاناة ضحايا (رواندا)، وكيف تحملوا آلامهم النفسية الملطخة بدماء القتل ومهانة الاغتصاب. امتد به الوقت حتى انتصف الليل، وكلما داعبه النعاس، ألحَّت عليه صرخات ونظرات "روهندا" وتستجديه أن يبقى على حاله مستيقظًا. شهقت أنفاسه النواحة وباحت بما يجول في أغواره من إرهاصات جنون ما جرى في سفوح الألف تلة. نهض من فراشه هائمًا على وجهه وانعقدت في عينيه نظرة بؤس وقنوط، خطا إلى دولاب ملابسه بخطوات تائه، أخرج من بزته السوداء علبة سجائره، أشعل واحدة، ثم مضى إلى الشرفة وجلس خلفها يحدق النظر في حديقة الفندق المحاطة بسياجٍ من الظلام الحالك. وبينما هو جالس يتأمل صفاء سماء المكان، داعبت حكايات الضحايا خلجاته. خُيل له أن صفحة المسبح الساكنة كأنها مرآة تعكس له مشاهد القتل والذبح الدامية، ورويدًا رويدًا زاغت نظراته وحادت عن واقعه. تراءت له مياه المسبح الفضية كأنها دماء قانية اللون. استفاق من غفوته، ثم انتفض من مكانه مفزوعًا ضيق الصدر، تنفس الصعداء حتى ذهب عنه الروع، ثم هرول بجسده المثقل بالهموم إلى مخدعه، وجثا على ركبتيه وانتزع حقيبة ملابسه الملقاة على الأرض، ثم وضعها على فراشه، وفتش فيها حتى أخرج منها

شنطة جلد سوداء صغيرة. بعد برهة، جرّ المنضدة إلى الشرفة، ووضع الشنطة الجلد عليها.

جلس يتفرس فيها بنظراته المتوترة، تردد في فتحها، لكنه تشجع واستجمع شتات فكره المنشطر بين الشك واليقين. قبض عليها بأنامله المرتعشة، وفتحها عنوة، ثم أخرج منها مسجل صوت "باناسونيك" ودفترًا وقلمًا. ظلّ يحدق في مسجل الصوت بنظراته الغائمة ويتحفز إلى تشغيله، لكنه لاذ بالصمت وأخذت الحيرة تساوره وتسحق عزيمته. تمالك مشاعره وأفلت من غيوم حيرته، وضغط على زر تشغيله، وأنصت يستمع إلى صوت العجوز "باسنجي" وهو يسرد شهادته. وبين الفينة والأخرى يوقف تشغيل المسجل ويدوّن بعض ملاحظاته بدقة في دفتره.

ظلّ "جيف" مشحوذ البصر ومُصغيًا إلى مسجل الصوت، حتى انتهى العجوز "باسنجي" بنبراته الواهنة من سرد معاناته. ترك "جيف" القلم من بين أنامله، وأشعل سيجارة، واستند بظهره إلى مسند الكرسيّ وتأرجح به كبندول الساعة. استغرق يفكر في شهادات الضحايا التي تلقاها واستمع إليها طيلة فترة تواجده في (رواندا). وجد شيئًا غريبًا في معظمها: أن القتل كان يجري لمجرد القتل دون هدف واضح أو أيديولوجية معينة. لكنه تراجع عن هذا الطرح، وحاول إيجاد أسباب اشتعال وطيس القتل، ومبررات تدخل بلاده. أمسك بالقلم وبدأ يخط ويرسم خطوطًا ودوائر متداخلة. أغمض عينيه، وبعد برهة اقترب من مسجل الصوت ثانيةً، وضغط على زر تشغيله، وأنصت يستمع إلى صوت العجوز "باسنجي" مرة أخرى بتركيز فاق الحد:

– قبل الإدلاء بشهادتي وسرد معاناتي، أودّ الاعتراف بشيءٍ.

تنهَّد العجوز "باسنجي"، وقد تمزّقت شفتاه بهمس حانق، كأنها خناجر تغرز في قلبه من صديق، ثم همس بصوت يائس:

- لم يؤلمني من قسوة الماضي سوى موت ضمير من أوقد نيران الحقد والحرب بين أبناء وطني.

صمت العجوز "باسنجي" برهة، محاولًا طرد أحزانه من صدره، ثم استطرد قائلًا:

- لن تتحملوا بشاعة ما جرى في سفوح تلال بلادي الألف من قتل وذبح، لكن دعوني أفشي بسرّ معاناتي الحقيقي، ألا وهو أن من قتلني وسفك دمي ودنس عرضي هو أخي الذي جاس بحقده وطغيانه، وقتل روحي البريئة دون ذنب.

غاب صوت العجوز "باسنجي"، تاركًا وراءه خواءً ثقيلًا في جنبات الغرفة. نظر "جيف" إلى مسجل الصوت مترددًا بين الترقب والانتظار، كأنه ينشد فيه عودةً للحياة. وبعد برهة غارقةٍ في الصمت، عاد صوت العجوز "باسنجي" يهمس في أذنيه بصوت حزين يمزج بين الحنين والأسى، مما زاد من وجوم "جيف":

- في السابع من أبريل عام ١٩٩٤م، ودّعت شمس بلادي نهار (كيجالي)، تاركةً من ورائها سماءً توشك على الانغماس في ظلامٍ دامس. وهيمن هدوء غريب على أرجائها، كأنه ينذر بعاصفة قادمة من أتون الجحيم. فجأة، انقلب المشهد رأسًا على عقب، وتحولت شوارعها إلى ثكنة عسكرية تموج بالارتباك والفوضى، وخيّم الغموض على ما يجري، دون أن نستوعب حقيقة ما يحدث تحت وطأة الحواجز والمتاريس الحديدية التي أقامتها قوى الشر. اختنقت "كيجالي"، وتحوّلت إلى سجن كبير يلفّ أجسادنا، حينما

انتشرت جنود الحرس الجمهوري والجيش "الرواندي" وجنود الفيلق "الفرنسي" في ربوعها كالجراد. في تلك اللحظة استشعرت بالقلق، وتساءلتُ في دهشة وحيرة: هل اندلعت نيران الحرب؟ أدرت المذياع على محطة "ميل كولين"، فإذا بصرخة من مذيع عفن يملؤها الحقد والكراهية تهز أوصالي: "قتل الرئيس جوفينال ولابد من القصاص من القتلة. أيها الشعب الأبي أبيدوا الصراصير واحرقوا بيوتهم وسلبوا أموالهم. أيها الشعب الأبي حانت لحظة الخلاص وتحرير الوطن من المحتل الحقيقي، فهبوا لنجدته". في خضم تلك اللحظة المشحونة بالرهبة، دبّ الخوف بقلبي وتملكني الرعب من انتقام أحقاد وكراهية "الهوتو".

تلعثم صوت العجوز "باسنجي"، وتمزقت حنجرته بهمسٍ مفجع، وانفجرت صرخاته الحزينة تدوي في مأتم الوجع:

- عمّ الظلم والقهر في كافة ربوع (كيجالي)، وبدأت رحى القتل والذبح تطحن أجسادنا البريئة، ونيران الحقد والكراهية تصرخ في بيوتنا الواهنة. وأصبح الموت يَعْدُو في سفوحها كالنار في الهشيم على يد جنود الجيش والحرس الجمهوري. وبعد أن انتشرت ميليشيا "الإنتراهاموي" ومجموعة "الصفر" في كل شبر من أرض الألف تلة، عَاثوا جميعًا فيها قتلًا وفسادًا. قتلوا الأطفال والنساء والعجائز بالمعاول والمناجل والسواطير، ونهبوا البيوت وأحرقوها بمن فيها، ولم يُفرقوا بين طفل وكهل.

هدأ صوت العجوز "باسنجي" بعض الشيء، ثم همس يردف أحزانه:

- وسط غمار هذا الهرج والمرج، شعرت كأن روحي تتمزق إربًا إربًا، وأنا لا حول لي ولا قوة. حينها خبأت زوجتي وأطفالي في حجرة مهجورة بالبيت مخافة الموت، انتظرت أترقب حتى تشجعتُ وقررت الهروب بصغاري أملًا في النجاة. لكن كيف؟ وجنود الموت تحوم في الأزقة قبل الشوارع.

تنهد العجوز "باسنجي" تنهيدة طويلة، ثم همس بصوتٍ خفيتٍ يسرد بقية معاناته:

- لم أيْئَسْ، ففكرت ودبرت حتى تجلت لي فكرة ماكرة. بدأتُ في تنفيذها على الفور. حينئذٍ تركتُ باب بيتي مفتوحًا على مصراعيه، ثم تسللت خلسة إلى الأزقة الضيقة، وحملت جثة على كتفي وعدتُ بها إلى باحة بيتي وألقيتها بداخله. عاودت الكرة مرة تلو الأخرى حتى امتلأت باحة بيتي بعشرات الجثث. انطلت خدعتي على القتلة وتوهموا باقتحام بيتي. بعد مرور يومين من الاختباء وسط رائحة الموت الكريهة، تحيَّنت الفرصة وركضتُ بزوجتي وصغاري شرقًا نحو التلال. اختبأتُ بصغاري بين الصخور تارة، وخلف جذوع الأشجار تارة أخرى، حتى حطَّ الليل بسواده على أجسادنا، وطوانا في طيَّاته المخيفة، وأخذ صفير ريحه العاصف يخاطب أفواه كهوف التلال ويناجيها بصدى صريره المفزع، ويلقي في قلوبنا الرعب. جرَّتني رهبة الموقف إلى أوهام الموت الحتمي. حينها قررتُ خوض معارك الهروب والبحث عن ملاذٍ آمن في أي مكان. وبينما كنت أصارع أفكاري، ترددت في أذنيَّ صرخات منهكة تستغيث وتستجير. تسلَّلت بين الأشجار كالمجنون، وتلفتُ

من حولي أبحث وأسترق السمع لصداها، حتى وقع بصري على قمة تلٍّ بالقرب مني، فوقها أشباح بشر بوجوههم المكفهرة.

تنفس العجوز "باسنجي" الصعداء، واختنق بالبكاء، ولم يعد قادرًا على الكلام، لكنه قاوم دموعه، ثم أردف بصوت حزين:

- يا الله! مليشيا "الإنتراهاموي" تُكبِّل بعض الضحايا بالحبال وتجبرهم على الوقوف صفًّا واحدًا على شفير هاوية التلة. يا الله! الضحايا تقف على قمة التلة في رعب، وهم لا حول لهم ولا قوة. تركت الضحايا وتفرست بنظري الغائم بالدموع في وجوه القتلة القاسية، وترقبت صفعة القدر من أين وكيف تأتي. فجأة، انقلب جندي "هوتي" ضئيل الجسد على أقرانه، واقترب من الضحايا وحاول فك وثاقهم. تشابك معه جندي آخر فصرعه، وهم بإنجاز مهمته الإنسانية التي بدأها، لكن القتلة تكاتفوا وتكاثروا عليه. انهالوا عليه ضربًا وركلًا حتى نزفت أوداجه. ثم أمسكوا به وقيدوه مع الضحايا وبصقوا في وجهه المضرج بالدماء. نظر إليهم في خنوع وخشوع العبيد، آملًا أن ينال صفحهم، لكنهم تمادوا في إيذائه وركلوه بأقدامهم، فسقط من أعلى التلة، وانجرفت معه أجساد الضحايا، وانفرطت على الصخور.

تلعثم صوت العجوز "باسنجي"، وغاب خلف أنين بكائه. اغتاظ "جيف" وشذر إلى مسجل الصوت، وضغط على قبضته بغضب، وهمَّ بتحطيمه، إلَّا أن صوت العجوز "باسنجي" عاد يردف بأنفاسه الهائجة:

- هوت الأجساد تصرخ صرخات الموت، ثم ارتطمت بسفح التلة وتناثرت دماؤهم البريئة على صعيدها كحبات عقد من عقيق أحمر.

غصّ العجوز "باسنجي" بريقه، ثم همس بصوت حانق يناجي ضمير الصبر:

- راقبت القتلة حتى انصرفوا إلى حال سبيلهم، تمردت على خوفي، وهرولت إلى سفح التلة بخطى متثاقلة بالجنون، لعلي أجد ناجين. وحين وطئت قدماي سفح الموت وجدت أجساد الضحايا مسجاة في دمائها خاوية من أرواحها، اقشعر بدني وشعرت بالغثيان، هممت بالرجوع إلى مخبئي، تردد إلى سمعي صوت يئنُّ، نبشت الجثث وتجاوزتها سريعًا، حتى وجدت هذا الجندي الشريف الذي رفض خوض غمار مذبحة مديح الدم، وهو يئن ويحتضر. اقتربت منه بسرعة، ونزلت على ركبتي وأخذته بين ذراعي، ونظرت إليه ومسحت على جبينه الدامي، أمسك بيدي وهمس بصوت متقطع محتضر يترجاني: "اهرب.. اهرب إلى (بيومبا) هي آمنة." ظلَّ يرددها حتى انقطعت أنفاسه، وشهق شهقة الموت، وفاضت روحه إلى بارئها. انهمرت دموع فخري وفاضت على جبينه، قبَّلته امتنانًا لإنسانيته، ثم عدت إلى صغاري وأنا أتحسَّس خطواتي؛ أقدم رجلًا وأؤخر أخرى خشية الوقوع في يد القتلة الفجرة.

انفلتت صرخات العجوز "باسنجي" من فمه، فاقد الإيمان بكل ثوابت الإنسانية:

- ارتاعت صغاري من منظر ملابسي الملطخة بالدماء، أوهمتهم بأني أصبت في كتفي. بعد أن التقاط أنفاسي، هرولنا جميعًا عبر الطرقات الضيقة والمتعرجة حتى وصلنا إلى مشارف قرية (بيومبا). مكثنا في غاباتها وأحراشها حتى ولج الصبح من فم الليل، تسللنا إلى ساحة مبنى البلدية المكتظة بمئات العيون الدامعة.

تجولت في أرجائها حتى وجدت مكانًا آمنًا بجوار باب مبنى البلدية. هرولت إليه وأجلست صغاري وزوجتي فيه، ثم افترشنا الأرض وتوسَّدنا بأوجاعنا. فإذا بأهل القرية يخرجون علينا من العدم، وهمُّوا بالفتك بنا. توسلنا إليهم وأخبرناهم بما فعلته يد الغدر والخسة من قتل وذبح. استحوا من دمائنا الواحدة.. أخيرًا وجدنا الأمان. حينئذٍ حاولت أخذ قسط من الراحة لعل جاثوم الخوف يفك أسري، لكني استيقظت من نومي على وقع أصوات بكاء أولادي الخافتة. نهضتُ من غفوتي خائفًا ومرتبكًا، جلست أسامرهم وأضاحكهم، لعلي أنزع من خوالجهم أشواك خوف الأمس. فجأةً، سمعتُ صخبًا يعربد بالمكان. تلفَّتُّ من حولي لأجد رجلًا طويل القامة، نحيفًا، شاحب الوجه، ممزق الثياب، رثَّ الحال، حافي القدمين يركض نحوي، وقد بدا عليه الخوف والرعب. انتفضت من مكاني وهرعتُ إليه، فإذا به يُلهث بصعوبة وكاد يُغشى عليه. أمسكتُ به من تلابيبه، ارتمى في حضني، وهدَّأتُه من روعهِ، وأعطيته شربة ماء. وبعد أن استعاد بعض قوته سألته عن سبب سوء حاله، صاح في وجهي بصوت مبحوح: "القتلة هاجموا قريتي، قتلوا الأبرياء.. اهرب، القتلة يركضون خلفي.. اهرب.. اهرب.." فجأة، غبَّر أفقي بأقدام القتلة، أرهبتني الصدمة، أفلته من بين يدي وتركته يهوي في وهدته وهو ينظر لي بنظرات سقيمة ترى الحياة من وراء نقاب الموت.. نعم، تركته وركضت وأنا أصرخ بأعلى صوتي: اهربوا.. اهربوا.. اهربوا.. اهربوا.. القتلة قادمون، اهربوا.

تأوه صوت العجوز "باسنجي"، ثم أردف بصوت مهزوم:

- حاول المسكين النهوض مرارًا، لكنّ مناجل وسواطير القتلة سعت إليه من وراء سحابة من الغبار، ومزقت جسده المنهك وأسقطته صريعًا كالدُّمى. ركضتُ سريعًا نحو الغابة، تاركًا زوجتي وصغاري يواجهون أسنة المناجل والسواطير. نعم، هربتُ وتركتُهم يواجهون الموت وحدهم.

غصّ العجوز "باسنجي" بكلماته الحزينة، واستطرد حديثه بسرعة، وكأنه يحاول تجاوز تلك اللحظات المفجعة، قائلًا:

- في تلك اللحظة، أيقنتُ بأنني لن أنجو من الموت. حينئذٍ بحثت عن ملاذٍ آمنٍ يأويني، حتى عثرتُ على حفرة. ألقيتُ بجسدي فيها دون تفكير، وانزويتُ بأوصالي المرتعشةِ عند حافتها، وتلحّفتُ بأغصانِ الموزِ الجافةِ. ومع كلّ صرخةِ موت كان قلبي يكف عنْ خفقانه، ويجتاحني الموت ألفَ مرة. وحين انكتمت صرخات الموت في حناجرها. أخرجتُ رأسي ببطء من فوهة الحفرة، فإذا بعباءة من الليل والصمت تَلفُّ المكان المكتظ بأجساد الضحايا. حينها تمنَّيتُ الموت الذي أفرُّ منه.

صاحت أوجاع العجوز "باسنجي" تحرق أنفاسه بصوت مجهد.

- انقضى الوقت ثقيلًا، وانصرمتْ ساعاتُ الليل حتى انتصفت، وأنا ما زلتُ أترقبُ الموت في أي لحظة، غفوتُ رغمًا عنّي من شدّة خوفي، ثم استفقتُ من غفوتي على صوت جلبة في المكان، رفعتُ رأسي وغمرت المكان المزين بأصلاب المآقي المشحوذة بالموت، فإذا بمليشيا "الإنتراهاموي" قد عادت وفي قبضتها أكثر من مِئتي "توتسي" من أهل القرية، غامت الدنيا واسودت في عيني، حينما اختار المجرمين مجموعة من الضحايا الأشداء وذبحوهم بالمعاول

والسواطير والسكاكين أمام ذويهم دون رحمة أو شفقة، وبعدما انفضَّوا من نحرهم، اقتادوا مجموعة أخرى من الضحايا وغطوا وجوههمْ بأكياس بلاستيكية حتى قضوا نحبهم اختناقًا.. قتلوا كل الرجال، وذبحوا كل النساء العجائز، وجلبوا الفتيات الصغيرات، والتفوا حولهن، وشرعوا في اغتصابهن، فجردوهن أولًا من ملابسهن، وتركوهن برهة عرايا، ثم بدوءا يتصارعون فيما بينهم على اختيار ضحاياهم، لكنهم في نهاية الأمر اتفقوا بكل خسة ووقاحة على تناوب اغتصابهن جميعًا.. انتهى السفلة من حفلة المجون والاغتصاب، ثم ذبحوا بعضهن وبقروا بطون بعضهن وأخرجوا أحشائهن، ولم تنتهِ أحقاد القتلة عند هذا الحد، حينها صاح قائد القتلة، فيما تبقى منهن على قيد المهانة، أقصد الحياة، وهو يضحك ساخرًا: "اهربن بأجسادكن العارية وإلا قطفتها بمنجلي هذا"، ركضن صوب القرية، لكن القتلة لم يمهلوهن فرصة الهروب وانهالوا عليهن وقتلوهن جميعًا، إلا فتاة صغيرة نجت من غدرهم وخستهم واستطاعت الفرار، لكنهم ركضوا خلفها وتسابقوا للنيل منها، حتى أمسكوا بها وشجوا رأسها، قاومتهم، وظلت تركض وتركض، للأسف هوت بالقرب من حفرتي، ظلت تزحف وتزحف وتخدش حياء الأرض بأظافرها البريئة، رفت بعينها كي أجيرها، وأنا بلا حول ولا قوة، اقترب قاتل منها وصرخ فيها بغيظ: "أيتها الساقطة"، ثم جرَّها من شعرها بعيدًا عني وهي ما زالت تنبش وتستجير بأديم الأرض، تتبعتها وأنا أتمعن في وجهها البريء حتى أجهز عليها وذبحها وركل رأسها بين أقدامهم وهم يضحكون.

صمت صوت العجوز "باسنجي" برهة، مخفيًا مشاعره، وهمس يسأل نفسه بحيرة:

- أتساءل في هذه اللحظة الفارقة من حياتي، أكان بإمكاني إنقاذها، أو إنقاذ أولادي؟ أجابني صياح القتلة: "سنقتل كل الصراصير، وسنقضي على شأفتهم من على وجه الأرض"، حينها وددت أن أسألهم: ألم نكن إخوة الماضي، فلماذا كل هذا الحقد وكل هذه الكراهية، وكل هذا القتل؟ ولماذا هان عليكم الدم البريء؟!

تأوه العجوز "باسنجي" وملأ نحيبه أروقة المكان، ثم أردف بصوتٍ مبتورٍ متقطعٍ باك:

- خلا المكان من الأرواح، وامتلأ برائحة الدماء، خرجت من مخبئي وجلست بين أشلاء العرايا اؤنب نفسي، انهمرت دموعي، وجف حلقي، وانكتمت أنفاسي، وتصلَّبت أوصالي، وشُلَّتُ حركتي، وكأني أسير قيود القتلة.. حينها تردَّد صوت أطفالي البريئة بداخلي، كأنهم يطبطبون ويجبرون جروح نفسي، ويحاولون نزع لوعة الحزن من أعماقي: "لا تحزن، يا أبتاه "فقابيل" قتل أخاه "هابيل" ظلمًا وعدوانًا".. هدأ روعي، وانصرم الليل بكل مآسيه، وانصرف القتلة، وتركوني وحيدًا أعاني مرارة الموت.. حينها حاولت جاهدًا التشبث بالأمل، تلمَّست طريقي وركضت نحو الغابة واختبأت بين أشجارها، واقتتُّ من عشبها لأكثر من شهرين، حتى هدأت الأوضاع وانتهت مجازر القتل والذبح.

صمت العجوز "باسنجي" برهة، ثم تنهَّد في حزن قائلًا:

- مرَّت الأيام وعادت الحياة إلى سابق عهدها، ورغم كل معاناتي ما زلت على قيد الحياة جسدًا بلا روح، أتنفَّس الوجع وأتساءل في حيرة، هل يُمكنني نسيان الماضي بأحداثه؟

صاح العجوز "باسنجي" ساخرًا، ثم أجاب على نفسه بصوت مُنهك:

- بالطبع لا يمكنني نسيان ما جرى، ولا يمكن محوه من ذاكرة الأيام؛ لأنه بكل بساطة يسكن في شرايين قلبي وسيظل يتدَفَّق فيها حتى الموت.

أنهى العجوز "باسنجي" سرد حكايته، أغلق "جيف" مسجل الصوت، وأشعل سيجارة وأمسك بقلمه وبدأ يُدَوِّن ويُردِّد بأوصال غاضبة:

- هل كان ليل (رواندا) يأتي دومًا بموت الأبرياء؟!

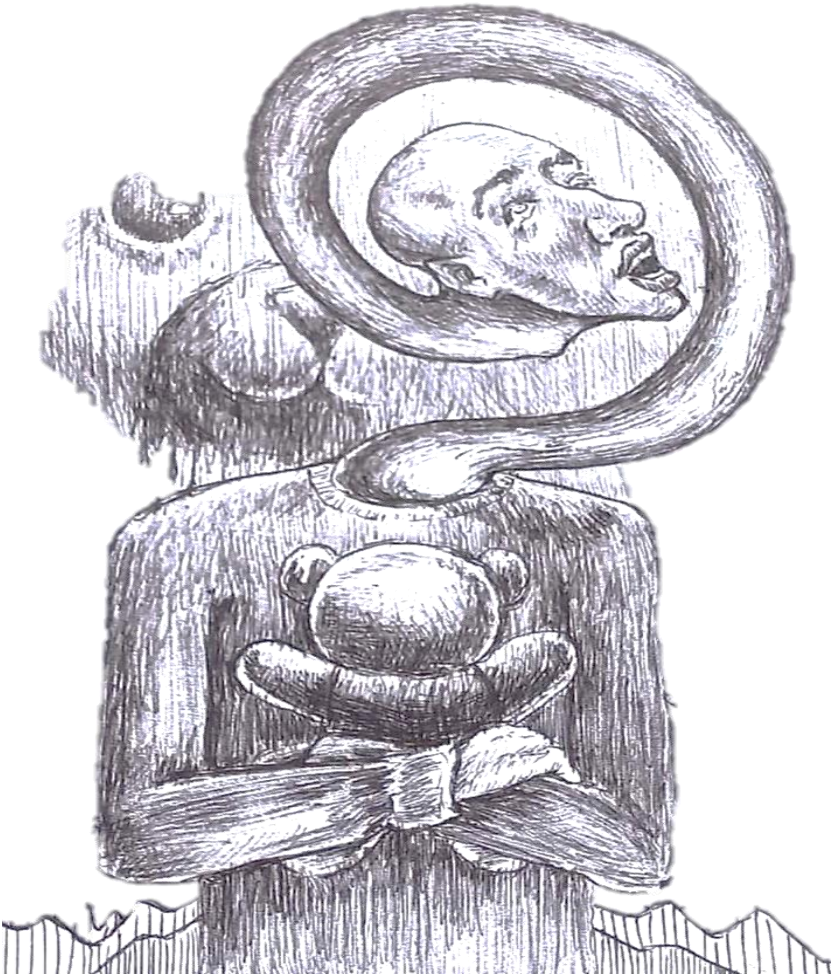

٢

تحير "جيف" من دور بلاده المُخزي في (رواندا)، وبدا له تدخلها في تأجيج فتنة القتل والذبح بين أبناء الوطن الواحد أمرًا مُزعجًا ومخيفًا، فغاص في بحرٍ من الريبة والشَّكِّ، وساورته أسئلةٌ مُحيرةٌ تبحث عن أجوبة مبهمةٍ، حاول جاهدًا إيجاد أجوبتها، وإيجاد مبرراتٍ لتدخل بلاده المخجل في بلاد الألف تلة.. تمزقت تلابيب فكره بين سندان الوطنية ومطرقة الضمير الإنساني، وأصبح الأرق رفيقًا له ولا يفارقه، ورويدًا رويدًا خفتت آماله، وتشرذمت أعماقه في دروب الصدق والكذب، لكن أمواج الصدق جرفته في سيلها الجارف، فتجلت له ضآلة نفسه كلَّما تملقته مشاعر محاباة بلاده وتبرير أفعالها، حينئذٍ تساءل بجدية:

- هل أنا جاد في سعيي وراء الحقيقة؟ أم أنني أتجول في ظلالها لأبرر دور بلادي الغامض في إذكاء نار الكراهية والعداء ضد "التوتسي"، والسعي للقضاء عليهم وإبادتهم، ومنع قيام دولة "أنجلوسكسونية" في شرق (أفريقيا)، حفاظًا على مصالحها الضيقة على حساب دماء الأبرياء مهما كان الثمن؟

نحَّى "جيف" كلَّ أوهامه وهواجسه جانبًا، وأرتحل بخطواتٍ محمَّلةٍ بالضيق والوجع في قرى وسفوح (رواندا)، باحثًا عن الحقيقة في دموع الضحايا، وفي متاحف الموت المكتظة برفات القتلى، وَأَدِلَّة القتل الوحشي التي تملأ أرجاءها، وفي أولى محطاته، وقف أمام نصب "جيسوزي" التذكاري المهيب حيث يرقد فيه رفات أكثر من مئتي ألف ضحية، حاملًا ثِقَل مأساة شعبٍ بأكمله.. ثم تابع رحلة بحثه عن الحقيقة، فصعد إلى تلة (نياماتا) حتى وصل إلى نصبها التذكاري "نياما" الذي

يُخلّد ذكرى أكثر من خمسين ألف ضحية، وحينما وطأته قدماه، ضاقت نفسه حزنًا، عندما علم أن معظم ضحاياه من الأطفال والنساء.. وقف أمام طاولة خشبية بإحدى قاعاته المكتظة بآلاف الجماجم المصفوفة جنبًا إلى جنب، فجأة، التقت عيناه بجمجمة طفل صغير مغروز فيها ساطور، ارتعدت فرائصه من هذا المشهد المروع، هرع إلى قاعة أخرى مكتظة ببقايا وحطام الضحايا، جثا على ركبتيه وتحسس ملابس الأطفال والنساء المخضبة بالدماء، غلبته مشاعر الحزن والأسى على ما حلّ بهذا الشعب المسكين.

ودّع "جيف" رفات الضحايا بخجلٍ مُحرج، وترددت صرخاتهم في أعماقه كأنهم يناجوه ويسألوه: "هل ما زلت تبحث عن مبرّر لبلادك؟"، ازداد خجله حنقًا حين وقعت عيناه مرة أخرى على جمجمة الطفل المشوهة بساطورها الصدئ، استحال وجهه إلى لوحة قاتمة، واستولى الوجل والوجوم على كيانه، وتحول هدوؤه الزائف إلى غضبٍ هائج. أسرع بالخروج وهو يئن تحت وطأة ما رآه، اغرورقت عيناه بالدموع، وبكى قلبه المكلوم على ضياع آماله في براءة بلاده من دنس الدماء في بلاد الألف تلة.

أنهى "جيف" جولاته في مزارات الموتى حاملًا في قلبه وجعًا لا يُوصف، همّ بالعودة إلى فندق أقامته "راديسون بلو"، أسرع إلى محطة الحافلات، ثم استقلّ الأتوبيس المتجه إلى (كيجالي)، جلس على مقعده بجوار النافذة يراقب منظر الأفق الغائم بعينين دامعتين.. جلس يفكر، واستغرق في تفكيره العميق يبحث عن كيفية الوصول إلى مرمى الحقيقة؟ خطط ودبر لأمره جيدًا، وصمم على تحقيق هدفه مهما كلفه الأمر، فجأة، رنّ هاتفه، قاطعًا حبل أفكاره، تجاهله في البداية، لكنه

سرعان ما أخرجه من طيات ملابسه، وتأهب للإجابة عليه بصوت مرتجف:

- ألو..

انقطع الاتصال قبل أن يُكمل جملته، ملأ الفضول قلبه واشتعل بداخله قلقًا متصاعدًا، فتصفح هاتفه بلهفة لمعرفة هوية المتصل، فإذا به يبتسم ابتسامة عريضة، وسرعان ما تبدلت ملامحه العابسة إلى غبطةٍ فائضة، وانشرح صدره وكاد قلبه الحزين يقفز من جنبيه فرحًا، عندما تلقى رسالةً من الطبيب "أوجين"، تُبشره بتعافي "روهندا"، ورغبتها في مقابلته.

شعر "جيف" بفرحةٍ غامرةٍ، لكنها فرحةٌ منقوصة ومُمزوجةٍ بخوفٍ خفيٍّ، خوفًا من مواجهتها ومواجهة حكمتها، وعدم مقدرته على مجاراة ذكائها الحاد، بدأ يفكر في كيفية الولوج إليها، وإقناعها بالتحدث إليه إذا رفضت.. تداعت الأفكار إلى ذهنه، وتشابكت في خضمّ هذا الصراع الداخلي، لكنه كان مُصمّمًا على المضيّ قدمًا إليها، ومُؤمنًا بأنّها مفتاح أبواب الحقيقة التي يبحث عنها.. وصلت الحافلة إلى محطتها الأخيرة، فترجل منها إلى شوارع (كيجالي) في رحلةٍ جديدةٍ مُفعمةً بالأمل، لم يهدأ له بالٌ حتى وجد سيارة أجرة، نادى عليها بصوتٍ ملهوفٍ:

- مستشفى "كيجالي" العسكري.

اندفع بداخلها، ثم جلس بجوار السائق، حثه على السرعة.. انطلقا يجوبان طريقيهما عبر الشوارع الضيقة، هربًا من صخب المدينة وزحامها، حتى وصلا إلى بوابة المستشفى الشاهقة.. نزل من السيارة قافزًا، وانطلق يركض في أروقة المستشفى، وقلبه يخفق كطائر حبيس،

حتى اقترب من غرفة "روهندا".. وقف أمامها شارد الفكر، مصلوب القامة، لا يقوى على الحركة، وأخذ يتنفس الصعداء مُحاولًا التغلب على ارتباكه والتظاهر بالثقة، تنهد تنهيدة طويلة، وكز على أسنانه، ثم دلف إليها.. تجولت عيناه المشتتتان في أرجاء الغرفة، حتى وجد "روهندا" جالسه خلف شرفتها الصغيرة وهي تتأمل بعينيها الغائرتين دوحة وارفة الأوراق متشابكة الأغصان، كأنها ترى فيها كل أحلامها وأمانيها.

خطا نحوها بخطواتٍ هادئة حذرة، كظلٍ يتسلل من خلف صاحبه، لم تنتبه لوجوده، وظلّت غارقةً في صمتها، وهي تتمايل مع زقزقة العصافير الصادحة بترانيم الأصيل، انتظر "جيف" برهة، ثم همس بصوتٍ خفيضٍ:

- سيدة "روهندا".

التفت إليه، وتفحصت ملامحه في ترقب وحذر، ثم ابتسمت بابتسامةً هادئةً، ورحبت به بصوت هادل:

- مرحبًا سيد "جيف"، تفضل.

تهادى "جيف" بخطواتٍ متأنية نحو كرسي خشبي قديم متآكل الحواف بركن الغرفة، جذبه بهدوء، وجلس بجوارها مُحاولًا كسب ودّها، فسألها بصوتٍ رقيقٍ:

- كيف حالك يا أختاه؟

أغدقته بنظراتها الثاقبة، وأجابته:

- أنا بخير.

حاول "جيف" إثارتها ولفت نظرها إليه، وفتح بابًا للحوار معها، تنهد وهو يحدق في ملامحها، قائلًا:

- أراك تحدقين في النافذة، وفي تلك الدوحة؟!

نظرت إليه، ثم اتجهت ببصرها المتعب نحو الدوحة، وأجابته:

- تلك النوافذ الضيقة هي أجفاننا المتعبة التي نري فيها سراب أحلامنا وقت ظمأ الروح، أما الدوحة فحالها مثل حالي.

اقترب "جيف" من "روهندا" أكثر فأكثر، وباتت الحيرة تنهش في زوايا فكره، أخذ نفسًا عميقًا وسألها بشغف، أرد من وراءه كسب ثقتها:

- الدوحة تشبهك؟!

أشارت إلى الدوحة، وأجابته بعميق حكمتها:

- أنظر إليها جيدًا سيد "جيف"، وتمعّن في أوراقها الزاهية، وفي أغصانها المتشابكة، وفي ثمارها الناضجة، وفي جذورها المتعمقة في الأرض.. هذه الدوحة تشبه فصول عمري، هي في الشتاء تأويني وتحميني من المطر ومن الريح العاصفة.. وفي الربيع تؤتني بثمارها فألهث إليها وأجني جمال ربيعها.

تنهدت من أعماقها بأسى، ثم أردفت بصوتٍ حسيرٍ:

- وللأسف، انزع أغصانها عنوةً في خريفها، واتركها وحيدة عارية تواجه مصيرها المحتوم، إما بالموت السقيم، أو القتل باقتلاعها من الجذور.

ارتسمت علامات الحيرة على صفحة وجه "جيف"، فسألها مُستفسرًا:

- عذرًا سيدة "روهندا"، لم أتمكن من فهم مغزى كلامك جيدًا!

افترت شفتيها عن ابتسامةٍ ساخرةٍ، ثم أجابته برفق:

- لن تتمكن من إدراك ما أرنو إليه، ولن تصل إلى ما أشعر به سيد "جيف"؛ لأنك بكل بساطة لم تعان مثلي ومثل الكثيرين من أبناء (رواندا).

صمت طويلًا عاجزًا عن فك شفرات كلماتها العميقة، كأنها لغزٌ محير لا يجد له مفتاحًا، استغرق يفكر في كيفية سبر أغوارها! وكيف يبدأ في حل هذا اللغز المعقد؟.. التفت إليها، وعيناه تتجولان في ملامحها، كأنه يحاول قراءة ما تخفيه خوالجها، وبعدما أرهقه الصمت، همس قائلًا:

- سيدة "روهندا"، أحتاج أن أستظلّ بدوحتك، فهل تمانعين؟

وكأنها نظرت إلى أعماق روحه، ورأت ما يجول بخاطره، فأومأت إليه بالموافقة، ثم همست قائلة:

- بالطبع، ما دمت لن تتجاوز حدودك، أو تعربد بها، أو تحاول اقتلاعها، فهي صعبة المراس، وجذورها متشابكة وراسخة في أعماقي.

ضحك "جيف"، قائلًا:

- حسنًا، لنذهب إليها ونستظل بعطفها دون العبث بها.

أمسك "جيف" بيدها بلطفٍ، وسار بها بخطوات هادئة عبر الردهة المظلمة، وراحت عيناه تتفحصان ملامح وجهها الشاحب، كأنّه يبحث عن إجابة لسؤال ما، لكنها أوقفته فجأة، وانفلتت من بين يده كفراشة هشة، ولت مدبرةً إلى غرفتها، تاركةً إياه في حيرةٍ عميقةٍ، اقتفى أثرها

بخطوات ثقيلة، اقترب من باب غرفتها بحذر، استمع إلى أنين أنفاسها المتسارعة، وبعد برهةٍ من الانتظار والتَّرَقُّبِ، فتحت الباب ببطء، ثم عادت إليه وهي تُمسك بقطعة قماشٍ باليةٍ ملطخةٍ بدماءٍ باهتةٍ، كأنها قطعة من روحها، هامت في تقبيلها واستنشاقها، كأنّها تحاول استعادة ذكرياتٍ ضائعة، امتعض "جيف" وغمر قلبه شعورٌ غريب من الحزن والأسى، كأنه يشعر بألمها، ثم همس بصوتٍ موجوعٍ:

- هيا بنا يا أختاه.

مضيا معًا إلى بهو المستشفى، ثمَّ جلسا تحت الدُّوحة، تلعثم "جيف"، وبدا كمن يحاول استعادة ذاكرته، ثمَّ التزم الصمت، بادرته بسؤالٍ زاد من حيرته:

- من أنت؟ ولماذا تلاحقني؟!

أرتبك "جيف" من سؤالها المفاجئ، وزاغ بصره يتأمل تجاعيدها، لكنه سرعان ما تدارك الأمر وأجابها بصدق:

- أنا "جيف هنري" محامي فرنسي.

شذرت إليه، ثم صاحت فيه بصوتٍ نافر:

- فرنسي؟!

زاد ارتباكه، حينئذٍ أدرك أنَّ الوقت قد حان لكسب ثقتها، فصاح فيها بحماسٍ:

- نعم فرنسي.
- ولماذا تلاحقني، أيها "الفرنسي"؟!

غصّ "جيف" بريقه، وتنهد قائلًا:

- أتفهم شعوركِ نحوي، لكن كلَّ ما في الأمر أننَّي مكلفُ من قبل حكومة بلادي، بإعداد تقرير عن مدى تقبل الشعب "الرواندي" لزيارة الرئيس "الفرنسي" في المستقبل القريب.

صاحت "روهندا" بحنقٍ وضيقٍ:

- ولماذا أخترتني دون غيري؟!

ضيق "جيف" عينيه، وأجابها قائلًا:

- سألت نفسي نفس السُّؤالِ، عندما أوصاني معظم ضحايا قرية (نجوما) بمقابلتكِ، وعندما التقيتكِ في المَرَّةِ الأولى، استشعرتُ فيكِ (رواندا) بِكُلِّ أوجاعها وأحزانها، بكل صبرها الجميل، بكل صفحها وغفرانها، لكني أبصرتُ بداخلكِ حزنًا عميقًا، مسجونًا خلف قناع من الرضا، خوفًا مطبقًا من مواجهة الواقع بوقاحته الوضيعة، وأَتَمَنَّى أَنْ يأتي يومٌ تثورين فيه على خوفكِ، وتنفضين من حياتكِ وهم المثاليَّة الزَّائفة والمقيتة.

غاصت عيناها بعينه، وقد اطمأنت إليه، بعدما شعرت بصدق مشاعره، فهمست قائلة:

- أنت محق سيد "جيف"، بالفعل داخلي صراعٌ مريرٌ ومخيف، صراعٌ يلقيني في وهدة الحيرة دومًا ويسألني، لماذا حدث في بلادي ما حدث؟ وهل كان بالإمكان تجنّبه؟ فلا أجد إجابةً تشفي غليلي، فتكبلني أوجاعي وتقهرني مخاوفي خشية تكرار الماضي.

هزَّت رأسها، ثم استطردت بصوتٍ مرتقٍ بالوجل:

- أنتِ وحدكِ سيد "جيف" من كسر قيود ظلمتي المطبقة، وهأنا أتوق بفارغ الصَّبرِ إلى يومٍ قريبٍ أُزيل فيه جميع قلاع حصون الخوف من أعماق أحشائي.

تفرَّست ملامحه، ورمقته بنظراتها الحادة، ثم سألته بصوتٍ جاد:

- أتدري ما الخذلان سيد "جيف"؟!

أمتَعَّضَ "جيف" من جهالته، وأومأ إليها نافيًا، هاجت فرائصها، وزاغ بصرها في غصون الدُّوحةِ، وارتسمت على تجاعيد سحنتها شجون ماضيها، ثم أجابته بأنفاسٍ مَهزومةٍ:

- الخذلان هو أن تمضي في دروب الحياة وأنت مطمئن النفس، فجأة ينقلب عليك كل من حولك، فتظلُّ عالقًا في دوامةٍ من الألق والأرق، فلا أنت قادرٌ على المضي قدمًا، ولا أنت قادر على الرجوع من حيث بدأت، ورويدًا رويدًا تنعدم ثقتك بذاتك، وتهرب من مجهول إلى مجهول، تدق أبواب الصديق، فتجد خلفه خائنًا كنت تراه حصنك الحصين، ودون أن تدري أو تعي حقيقة أمره تجده يغرس سهام غدره في ثنايا قلبك الأسيف.

انطفأت بسمة "جيف" من على شفتيه، وأقبل عليها في إجلال، ثم همس في أذنيها:

- سيدة "روهندا"، رغم كل سنين عمري لم أقابل من هو في حكمتكِ، فكلماتك تنبع من ينابيع الحكمة الأزلية، وتلامس حكمة الأنبياء.

تَبَدَّلت مخاوفها من "جيف"، وحلّت محلها طمأنينةٌ ممزوجةٌ بثقةٍ مُفرِطةٍ، تنهَّدت من أعماق ترائبها وهمست بصوتٍ أجشّ:

- سيد "جيف" سأنشد إليكَ حديثًا موجعًا، فانصت إليّ جيدًا، وأمسكْ بِصبرِكَ، وفكّرْ في كلامي مليًّا، وادفنْه عميقًا في ذاكرتكَ، وليبقَ بيننا سرًّا مُقدّسًا حتى يحين وقته.

تَسَلَّلَ القلق إلى قلبه، مع كُلِّ كلمةٍ تنطق بها، بينما كانَ ميزانُ نبراتِ صوتِها الشجيّ يهفت شيئًا فشيئًا إلى أن عاد إلى ذروةِ هدوئه:

- كانت بلادي نبعًا من ينابيع الحياة منذُ الأذلِ، وفي ربوعُها وسهولُها وتلالُها وغاباتُها غمر الحب أرواح أسلافي المتباينة، وعاشوا معا في سلامٍ وأمانٍ دون سفك قطرة دمٍ واحدةٍ، حتى جاء الشيطانُ الأبيضُ، مُتخفيًا وراء قناعٍ من الورع والنفاق، ووعظ فينا بأكاذيبه، وأحتالَ علينا بمكرهِ ودهائه، واستولى على تراب الوطن عنوة، وبعد أن تملك زمام أمرنا نزع الحبِّ من قلوبنا البريئة، وزرعَ بذور الفرقة والحقد والكراهيةِ، نعم، نجح الشيطانُ الأبيضُ في تقسيم أبناء الوطن الواحد إلى فرقٍ متناحرةٍ، وليته اكتفى بذلك! بل فكَّك ثوابت المجتمع، وأشعل نيران الفتنة فيه، ثم تركه شيعًا تتقاتل ويبيد بعضها البعض، من أجل لا شيء.

اكتحلت عيناها الدامعتان بالأسى، ثم أردفت بصوتٍ حزنٍ:

- كنتُ فتاةً جميلة، يفيضُ قلبي بالحياةِ ونبضِها، وأرى الأملَ يتلألأُ في أعماقي، أتوقُ بِشغفٍ إلى حبٍّ صادقٍ يُحيطُني ويحتويني.

التمع وجهها الأسمر بابتسامة خافته، وهي تسرد ماضيها:

- كنت جميلة جميلات قريتي (نجوما)، وكنت مزهوة بجمال جسدي وأنوثته الطاغية، وحينما كنت أخطو بقدميَّ في طرقات القرية، كانتْ أعين الشبابِ تُلاحقُني بنظراتهم الجائعة، وتشتهي جسدي الممشوق وتتوقُ إلى قلبي الصغيرِ، لكنّ فؤادي لمْ يكن ليؤنسه

سوى حبّ "موليسا" ابن الجيرانِ، ذلك الفتى الذي استحوذَ على كياني بحُبّه، نعم، لقد غرقتُ في حبّ "موليسا"، وسيطرَ حُبّهُ على كياني، حاولتُ التقرب منه، لكنّه كانَ يتجاهلُني بخجلهِ المفرطِ.. لم أَستسلم لذلك الإحباطِ، بل حَسمتُ أمرِي وقررتُ أنْ أُوقعهُ في حُبّي، بالفعلِ، نجحتُ خطّتي، وأوقعَته في غرامي، وتُوّجَ حبّنا بالزواج، وأَثمرَ عن طفلينِ رائعينِ "سارة" و"يوجين"، ثم انضمتْ إليهما الشقية "نيانا".

حضنت "روهندا" نهديها، وصمتت صمتًا عميقًا، وهامت تُقَلِّبُ أوراقَ ذكرياتها، وافترت شفتيها عن همسٍ باهتٍ، كأنه أنفاس قلب متعب يحتضر:

- في ذات يوم، كنا جالسين في بهو البيت نحتسي الشاي بعدما تناولنا الغداء، فجأة، دوّت صرخات عالية في ساحة القرية المطلة على بيتي، تجاهلتها في بادئ الأمر، وظننتها صرخات أطفال تلهو، لكنها سرعان ما تكررت وازدادت حدتها، ورافقها ضجيجٌ هائلٌ، تملكني الخوف، سرتُ مسرعًا خلف "موليسا" لأرى ما يحدث.

نظرتُ من "وصواص" الباب إلى ساحة القرية، ارتعبت وتراجعتُ إلى الخلف والذعر يملأ أحشاء نفسي، وازداد هلعي وخوفي حين رأيتُ جاري "الهوتي" يمسك منجلًا ويطارد زوج شقيقته "التوتسي" بلا رحمة، حتى لحق به وانهال عليه بضربٍ مبرح وطعناتٍ قاتلةٍ أودت بحياته، ظننتُ أن ما يحدث مجرد شجار عائلي، فهمَّ "موليسا" بالخروج لاستجلاء الحقيقة، لكَني ترجيته ومنعته خوفًا على سلامته؛ انصاع لمخاوفي.. عدنا إلى بهو البيت والخوف يتلاعب بخفقاتي، ومع مرور الوقت ازدادت حدة

الأصوات والصرخات، تسللتُ إلى شرفة الصالة، وراقبتُ الفوضى العارمة التي سادت ساحة القرية، ازداد رُعبي وهلعي حين رأيتُ أهالي القرية يفرون ويصرخون: "ميليشيات "الهوتو" تقتل وتُذبح كلّ "توتسي"! اهربوا.. اهربوا".

انتفضت "روهندا" من مكانها في ارتياع، ثم عادت إلى مكانها وهي تصيح:

- هرولت كالمجنونة أُغلقُ أبواب البيت ونوافذه، وأنا أصرخُ في "موليسا": هل سمعت ما سمعتُه؟! صمت وأمسك بتلابيبي ملابسي ثم حضنني، وطالبُني بالهدوء.. وقفت بين يديه وقد عصفت المخاوف بأنفاسي، فترجاني بأخذ الأطفال والاختباء، رفضت وصرخت فيه: لن أتركك أبدًا، ثم تركته وتوجهتُ إلى "يوجين" وطلبتُ منه اصطحابَ "سارة" و"نيانا" والاختباء في عشة ألعابه فوق السطح، امتثل لأمري بعد طول عناد، ثم مضى هو وإخوته حتى تواروا عن بصري، حاول "موليسا" أقناعي بالاختباء معهم لكنَّني رفضت وظللت جالسه برفقته أراقبُ ما سيحدث.

تأوهت وندت من فمها صرخةٌ مكتومةٌ، ارتعشت أطرافها وتشنجت في هياج، انهمرت دموعُها، انتفض "جيف" وربت على كتفيها بلطفٍ، قائلًا:

- لا تحزني يا أختاه، فما تلك إلا ذكرياتٍ طواها الزمن.

حضنت منديل "موليسا" الملطخ بدمائه، ومسحت به دموعها، ثم همست بصوتٍ يخاطب أعماق الماضي:

- فجأة، سمعتُ طرقًا خفيفًا على باب بيتي، انتفضتُ من مكاني، وقد عربد الخوف بأوصالي، نهض "موليسا" وهَمَّ بفتح الباب، أمسّكتُ

بهِ وتوسّلتُ إليه ألَّا يفعلها، لكنه لم يصغ إلى رجائي وتسلل من خلفي، ونظر من "الوصواص"، ثمّ عادَ إليّ وقد ارتسمَت على وجههِ طمأنينةٌ مشوبةٌ بالراحة، وهمسَ بثقةٍ مفرطةٍ: "لا تخافي، إنّه صديقي "كابوجا".. فتح "موليسا" الباب، دخل "كابوجا" مسرعًا والشَّرُّ يتطايرُ من عينيه المليئتين بنظرات الغدر والخسة، ثم أغلق الباب من خلفه بعنف، دنا من زوجي، واستلّ ساطورًا من خلف ظهره وهجم عليه، وانهال عليه بالطعن حتى أجهز عليه، وأردهُ قتيلًا.. لم يكتفي الوغد بفعلته، بل فصل رأسه عن جسده.. نظرتُ إلى جسد زوجي المسجى في دمائه على الأرض، وإلى رأسه التي استقرَّت بين قدمي، تفرست فيها وفي عينيها الدامعتين، وأنا لا أصدقُ ما جرى، الوغد "كابوجا" قتل زوجي؟! قتل صديقهُ؟!

فاضت عيناها بأوجاع السنين، وأخفت دموعها المنهمرة بكفيها، وأغدقت صرخاتها في وجه السماء:

- الوغد قتل زوجي.. الوغد قتل صديقه دون ذنب.. الوغد قتل حياتي.

انطفئ بريق عينيها من شدة البكاء، دنا "جيف" منها، وأخذها في حضنه حتى هدأت أوصالها المرتاعة، كفَّت عن بكائها، فجأةً، فلتت من بين يديه، وتمعنت في عينيه الغارقتين في الدموع ، ثم صرخت بصوتٍ مبحوحٍ يقطر منه الحزن:

- سقطَ زوجي صريعًا أمامي عيني، تاركًا في قلبي جرحًا غائرًا لا يندمل ابد الدهر، جثيت على الأرض وحملتُ رأسه الملطخَ بالدماء بين أناملي، ضممتها إلى صدري كأنها طفلٌ صغيرٌ يُسلمُ روحه

البريئة، ودماؤها النازفة من الوتين، كأنها دموعٌ حارقةٌ تشاركُني أحزاني.. جن جنوني، وثارت ثائرتي، صرختُ في القاتلِ: لماذا قتلت زوجي؟! لماذا قتلته أيها الوغد؟!، أحدق النظر في وجهي بغضبٍ، ثم وكزني بوحشيةٍ، وانتزع رأس زوجي من بين أناملي وركلها بعيدًا عني، اندفعتُ نحوهِ كوحشٍ جريحٍ، صفعتهُ على وجههِ بكل ما أتيت من قوة، لم يهتزْ، بل هاجمني بكلّ قسوته، وطرحني على الكنبة، نهضتُ وحاولت الفرار من بين يديه، لكنهُ كان أسرعَ مني، جرّني من شعري، وأخذَ يصفعُ وجهي دون رحمة، ثم طرحني على الكنبة، وأخذ يتلذذ بضربي وتعذيبي.

صرخت "روهندا"، وصرخاتها تدمي عيون ملائكة السماء:

- الوغد قتل زوجي، وضربني بلا رحمة، وأنا لا حول ولا قوة، حينها نظرت إلى رأس "موليسا" استحلفها أن تفعل شيء، أو تلملم شتات أوجاعي أو تخلصني من هذا الوغد، لكني وجدتها تحدق في أديم الأرض بدموعٍ متحجرة، كأنها تخجل مني وتستجديني الصفح والغفران، لأنها وثقت في خائن.

تنفست "روهندا" الصعداء، وصمتت برهة، ثم همهمت بأنين:

- انسحب الوغد "كابوجا" بعدما ذبح زوجي، وتركني وحيدة مع أطلالي المهدمة، ألملم جراحي وأحزاني، ظللت مستلقية على الكنبة غير قادرة على استيعاب ما حدث، حتى أفقتُ من الصدمة واستعدت وعيي، نهضتُ من مكاني مسرعة وهرولت إلى غرفتي، وبدلتُ ملابسي، ثم صعدتُ إلى أطفالي وأنا أحاول حبس دموعي وأوجاعي في قلبي، خوفًا من انتقال الخوف إليهم.. في هذه

اللحظة قررت الهروب إلى أي مكان أخر بعيدًا عن شرور أوغاد (نجوما).

مرَّت الدقائق علينا كسكاكين تسلخ شاهها المذبوحة، وفي جوف الليل الدامس أمسكتُ بيد "نيانا" وعهدت بيد "سارة" إلى "يوجين"، ثم هرعنا إلى أطراف القرية، وركضنا بلا هوادة في الطرقات الوعرة والمتعرجة بين الفارين.. ركضنا من طريق إلى طريق، ومن تلة إلى تلة ومن غابة إلى غابة، حتى تهنا في عتمة غابات الموت، جلسنا بين جذوع الأشجار نلتقط أنفاسنا، وانصرف "يوجين" لقضاء حاجته، ثم عاد مذعورًا وهو يصرخ: "أُمَّاهُ رأيت أشباحًا تحمل مناجل وتذبح من يقابلها"! لم يكمل كلامه حتى سمعنا أصوات أقدام تقترب منا، نظرت من خلفي فوجئت بمئات القتلة يركضون نحونا، حاولت الهرب بأطفالي، لكني تعثَّرت وسقطت على الأرض فاقدة الوعي.

استفقت من غشيتي وأنا أتحسس جسدي، وانفضُّ التراب عن ثيابي، حاولتُ جاهدة استيعاب كامل وعيي، نظرتُ من حولي، فوجدت نفسي محاطة بأكوامٍ هائلة من الجثث، خفق قلبي وتسارعت دقاته، ودب الفزع في عروقي.. الجثث تحاصرني من كل حدب وصوب، وأنين الاحتضار يصمُّ أذني، انتفضت من مكاني كالمجنونة ونزعت الخوف من داخلي وتخطيتُ الجثث ونبشتها بحثًا عن أطفالي، لم أجد لهم أي أثر.. عاودت البحث حتى وجدت جثة "نيانا" هامدة مسجاه في دمائها البريئة، تركتها مكانها والحزن يعصر قلبي، ترنحتُ بين الجثث أبحث عن "سارة" و"يوجين" لكنَّني فشلت، عدت إلى "نيانا" وأنا أجر أذيال الخيبة

والحسرة، أخذت جثتها في حضني، وحفرت لها قبرًا صغيرًا ودفنتها بدموع قلبي.

كفت "روهندا" عن الكلام، ونظرت إلى دوحتها تبحث عن السكينة، أقبل "جيف" عليها وقبل جبينها، وشاركها بكائها، وصاح في حنقٍ:

- نكست رايات العدل فوق تلال الوجع، وصار الجور قاضيًا بين الأخوة، ونزع الشر كل ينابيع الحب من قلوبهم الطيبة.

هام "جيف" في وجهها النازف بالبكاء، وتوارى حديثيهما بين سدول الصمت، وبعد برهة همس بصوتٍ هادلٍ:

- لو كان الأمر بيدي ما سالت قطرة دم واحدة، ولا ظُلِمت نفسٌ في هذا البلد الحزين.

أومأت إليه برأسها بقنوط، ثم أجابت بلهجة رافضة:

- الأماني دومًا تلملم أحلامنا المستحيلة في محرابها، والشر الساكن في رحم الأيام، يكبر يومًا بعد يوم، ويأكل من أحشاء خير الأيام ويُضعفه، وحتمًا ستسيل أنهار الدم في مناكب الحياة، وستغوص مراكب العدل فيها، إنها الحياة تحيا على أنقاض حياة.

صاح "جيف" في أسى:

- يا الله من كل هذا الوجع، ومن هذه الحكمة.

تنفس "جيف" الصعداء، ثم سألها، قائلًا:

- أيؤذيك الوجع يا أختاه؟

تنهدت "روهندا"، ثم همست بصوت حكمتها، وأجابته قائلة:

- بالطبع يؤذيني، لكنه أصبح كأسي وندمي. تارة أهزمه وتارة يهزمني؛ لذا عليك بالصبر على أوجاعك حتى لو نزفت. اصبر، ثم اصبر حتى لا تنكسر هامتك. اصبر وإن كان طعم الصبر مرًا، فكثير من دواء أسقامنا مرٌّ كطعم الصبار.

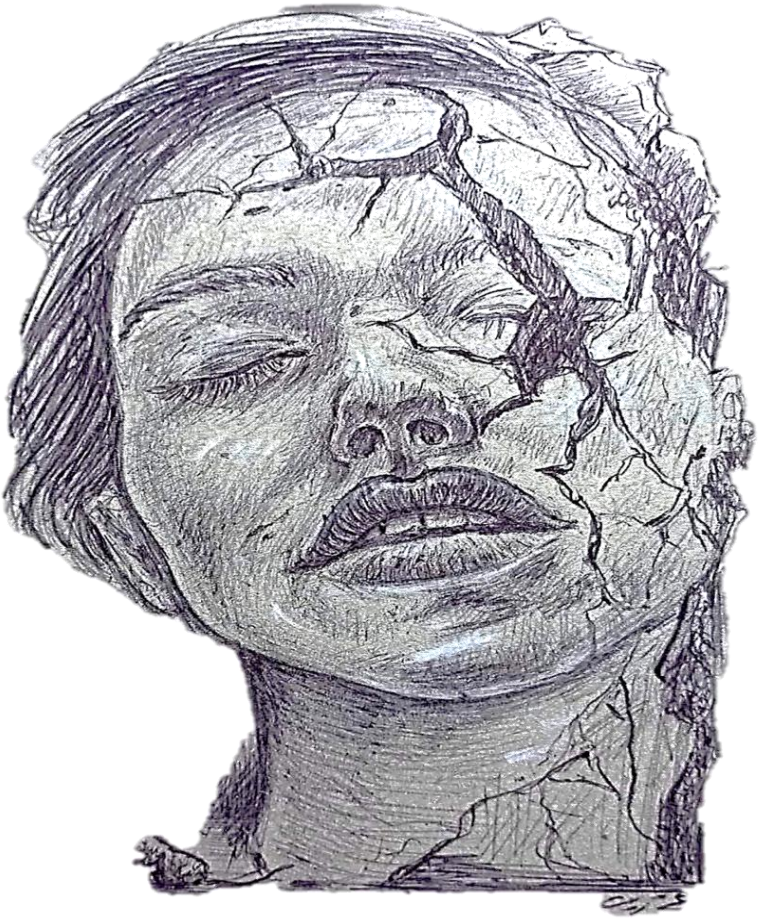

٣

قضى "جيف" أكثر من مئة يوم يجوب سفوح وتلال (رواندا)، باحثًا عن الحقيقة، ولا هدف له سوى جمع خيوطِ ما جرى من مجازر وعمليات إبادة، ومعرفةِ من أشعل فتيلَ فتنتها، حينئذٍ تساقطت أقنعة الزيف تباعًا وتمزقتْ أثوابها بين يديه، تجلت له الحقيقةُ عاريةً، صرخَ يتسأل في يأسٍ:

- من أضاع رايات الحق في دروب الظلم؟!

ظل "جيف" طيلة هذه الفترة عالقًا في أوحال الذبح والقتل، حتى تاهت خُطواته المتثاقلة بالأوجاع في دوائر متاهة سفك الدم "الرواندي"، فكُلَّمَا خطا في شوارعها وأَحراشها وكنائسها، سحقَت أَقدامُهُ رفَات القَتلَى، وامتلأَ خُفَّاهُ بصراخات النِّساء والأَطفَال، وهِي تصرخُ فيه، وتُخاطِبُ ضميرهُ: لِماذَا سالَت دماءُ أَرواحِنَا غَصبًا في أَنهارِ الحقْدِ وَالكراهيةِ؟.. وبعد أن ترجَّل في دروبها وجاس في شعابها، يرتجي راحة ضميره، ونفض أثقال هموم مهمته عن كاهله، وجمع كل ما يحتاجه من شهادات ومعلومات ودلائل، أوصد أبواب بحثه، وهم بمغادرتها.

حمل "جيف" حقائبه المثقلة بأوجاع الضحايا وصرخاتهم، ومضى إلى مطار "كيجالي"، جلس على مقاعد الانتظار صامتًا هائمًا في الوجوه، تعلقَّت عيناه بطفلة صغيرة تلهو بوجه أبيها، لوَّح ليداعبها، واستغرق يتفرس فيها وفي ضحكاتها البريئة حتى توارت بين الزحام، تبدَّلت ابتسامته الخافتة وحلَّ مكانها عبوس وكدر، تردد في أعماقه صوت أنين بكاء العجوز "باسنجي" وهو يسرد معاناته، وكيف قتل

أطفاله أمام عينيه وهو عاجز عن حمايتهم والذود عنهم، حينها تساءل في جزع:

- كيف أزهق الإنسانُ "الرواندي" روحًا بريئةً، كُلُّ ذنبها أنّها قابلته لحظةَ انعدام ضميره؟! وكيف لهذا العالم الموحش غضُّ البصر عن قتل الأبرياء في شتى بقاع الأرض دون ذنبٍ أو جريرةٍ؟!

لوى "جيفُ" عنق أفكاره، وهشم أنياب هواجسه، ثُمَّ عاد يتأمّل في الوجوه في صمتٍ، بعد برهة انتفض من مكانه على صدى صوت المُذيع الدَّاخليِّ للمطار وهو يعلن عن اقتراب موعد الرِّحلة المتَّجهة إلى (باريس)، حمل حقَائبهُ وهرول بينَ المارَّة بخطواتٍ مثقلةٍ مُتعبةٍ، ثُمَّ اتَّجه إلى مكتب الجوازات وأَنهى كافَّةَ الإجراءات، ثم دلف إلى باحة المطار الدَّاخليَّة، واستقلَّ الحافلة المُتَّجهةَ إلى الطَّائرة، وقَد حلَّ به التَّعبُ، وانطفئت عيناه بهالاتٍ سوداء.. توقَّفت الحافلةُ، ترجَّل منها، وصعد سلم الطَّائرة بجسده الممزَّق من الإجهاد على مهلٍ، دخل قَمرتها هائمًا بالبُحث عن مقعده حتَّى وجدَّهُ، جلَس عليه، وربط حزام الأَمان على خصره.

أَقلعت الطَّائرةُ في موعدها وغاصت في سماء (كيجالي)، أَغمض "جيفُ" عينيه النَّاعستين، وغاص في سبات عميقٍ، ظلَّ مُستغرقًا في سباته، حتَّى انبلجت أُفُقُ سماء (باريس)، رف بجفنيه، وبدأ يستعيد وعيه على نبرات صوتٍ أنثوي يناديه:

- سيدي.. سيدي.

نظر "جيف" إلى وجه المضيَّفة الطَّافِح بالجمالِ، وهي تهُمسُ فِي أذنيه:

- صباح الخير، سيِّدي.

أَجابها وهو يتثاءبُ، متعجبًا:

- صباح الخير!!

تمعَّن في زُرقَة السَّماء الصَّافية من خلف النَّافذة، وتفرس في وجه المضيفة وَهو يتمطَّى بجسده قَائلًا:

- من فضلك، كم السَّاعةُ الآن؟!

ابتسمت المضيَّفةُ، وهمست قَائلةً:

- لَقَد استغرقت أَكثر من ثلاث ساعاتٍ نائمًا، وها نحنُ قَد اقتربنا من سماء (باريس)، وكُلُّها بعضُ دقَائق ونصل إلى مطارها، الرَّجاءُ الانتباه والاستعدادُ.

أَومأَ إليها برأْسه، ثم جال ببصره مِن خلف النَّافذة يتأَمَّلُ جمال بلاده، فجأة، انكفأ وجهه وتَأَلَّمُ وجدانه من تَورِّط بلاده في مُستنقع الدَّمِّ "الرواندِيِّ"، ظلَّ مُشخِّوذ البصر يتأَمَّلُ جمال مدينة النور إلى أن وصلت الطَّائرةُ إلى مُحيط مطار "شارل دِيجول"، ثم حطَّت بعجلاتها على ممرٍّ هُبوطها، وتوقفت تمامًا، والتصقَّت بسلَّم النُّزول، نهض من مقعده، وهو يتعاركَ مع ذاته حتَّى وصل إلى صالة الانتظار وأنهى كافَّة إجراءات الخروج.

وصل "جيف" إلى بيته وسط (بارِيس)، وقف أمام بابه يستنشق نسمات الصقيع القارصة، ثم دلف إلى بهوه المظلم، أَضاءه، وجلس به برهة يلتقط أَنفاسه المتعبة، ثمَّ صعد إلى الطابق العلوي، وعبر طرقَة صغيرة تفضي إلى حجرته، وبمجرد أن دخلها ترك حقائبه من بين يديه، وألقى بجسده المنهك على فراشه، لكنه سرعان ما نهض وبدَّل ملابسه على عجل، ثم عاد إلى البهو ومنه إلى مكتبه، وبعد أن قضى ما

يقرب من الساعة فيه، خرج إلى البهو وهو يحمل شنطةَ جلد متوسطة الحجم، هرول مسرعًا إلى الجرَّاج.

استقلَّ سيارته "الرِّينو"، أَدار محركها، وظلَّ جالسًا خلف عجلة القيادة هائمًا في صمته، وبعد برهة انطلق في طريقه، تخطَّى مُستشفى "نِيكَرْ"، ثم انحرف يسارًا ومر بشارع "لُوكيربي" ومنهُ إلى كُورنيش "نهر السِّين"، الذي اتَّخذ منه طريقًا، وبعد كيلومترات قليلة، توقَّف في محطّة "تُوتال" لتزويد سيارته بالوقُود، ثم واصل طريقه حتى وصل إلى مشارف مدينة "فرساي".

راودته صرخات المسكين "كاجيري" بصوته المرتعش الباكي وهو يصرخ:" قتلوا كُلَّ أَفراد القرية بِالمناجل والسَّواطير، وتخضَّب تراب الوطن بدمائهم الزكيَّة، حينها هربت وأنا استجدي السَّماء في تضرُّعٍ أَن تطفئ نور شمسها، وأَن تخبِّئ جسدي الضَّعيف من القتلة بين سدول ظلمتِها".. غشي بصر "جيف"، وبدا له أفق مداه ضيِّقًا يَموج بظلمةٍ مخيفةٍ، تجهَّمتْ سحنته وانبجست أَنفاسه الهائجة وأَحسَّ بوقعها في صدره، توقَّف بقارعة الطريق، وأخذ يلتقط أَنفاسه من أعماقه بصعوبة بالغة، حاول استجماع شتات ذاته الواجمة، بعدما سئم من صرخات الضَّحايا الَّتي باتت تطارده في صحوه ومنامه، لكنَّه وضع نفسه موضع "كاجيري"، وتخيل أَنَّه هو من يهرب من موت إِلى موت، تمرَّدت دموعه الَّتي خبَّأها خلف خفقات قلبه، ونالت منه وانسكبت على وجنتيه كالفيض المنهمر.

استند بمرفقيه على عجلة القيادة، وحضن رأْسهُ براحتيه، واستغرق في وجُومه وبُكائه، حتى هدأَت أنفاسه، كفَّكف دموعهُ واستجمع قواه، واستعاد ثقته بنَّفسه، وعزم نبش قَبور الْماضي وتوثيق دور بلاده في مذابح (رواندا).. انتزعَ الوجل من أوصاله، ومضى في

طريقه حتَّى وصل إلى "فرساي"، دلف إلى شارعٍ ضيِّقٍ يُفضي في نهايته المغلَّقة إلى بيتٍ قَديمٍ تحيطهُ حديقةٌ صغيرة طالَها الإهمال.

ترجل من سيارته وهرول إلى باب الحديقة وفتحهُ دون عناءٍ، شملها بنظراته الزَّائغة حتى وصل إلى باب البيت المغلق، وقَف أَمامه برهة يحدقُ في جنباته.. غصَّ بريقهُ، ثم ضغط على ذرِّ الجرس انزوى بجسده المتعبِّ يترقَّبُ وينتظر، طال انتظاره، ولَم يخرج إليه أَحدٌ، دقَّ الباب دقًّا شَدِيدًا، وضغط على ذرِّ الْجرس ثانِيةً، فإذا بصوتٍ أَجشّ غليظٍ ينفجرُ من خلْف الباب:

- مَنْ بالباب؟!

طلَّ "ويليام" بقامته المعتدلة، وبقسمات وجهه الصارمة، وبنيانه القوي، مرتديًا قميصًا أزرق مموهًا، وسروالًا أبيض قصيرًا، ثم نظر إلى "جيف" بحاجبيه العاقدين، تسمَّر مكانه، وقد امتلأت عيناه بالدهشة، افترَّت شفتيه عن ابتسامة حائرة، لكنه سرعان ما اندفع نحوه وعانقه وهو يهمس قائلًا:

- مرحبًا ابن العمِّ.. مرحبًا يا "جيف".

غمره "جيف" بنظراتٍ مثقلةٍ بالهموم، وأجابه بصوتٍ خفيتٍ كأنين الريح:

- كيف حالك، يا "ويليام"؟

- أنا بخير.

ربت "ويليام" بلطف على كتفه، ثم أمسك بيده، ورافقه إلى حجرة الأَنتريه، وهو يردِّدُ في سعادةٍ غامرة:

- تفضَّل.. تفضَّل يا "جيف".

دخل "جيفُ" إلى حجرة الأَنتريه خافتة الإضاءة، شارد الفكر، عابسُ الوجه، تراودهُ صرخاتُ الضَّحايا، استاء "ويليام" من هيئته الْعابسة، صاح فيه:

- أأَنتَ بخير يا "جيف"؟!

أَجابهُ بصوتٍ مُتكلفٍ، محاولًا إخفاء توتره:

- لا تبالي بأَمري، وأَخبرني كيف حالك أنت؟، وكيف تُقَضِّي الوقتَ بعد تقاعُدك من الجيش؟

تنكَّر "ويلْيام" مسحة الحزن الَّتي تعتري وجهه، وأَجابهُ بصوتٍ مخنوقٍ:

- أنا بخير، لكنني منزعج من هيئتك العابسة.

صمت "جيف" واختلجت بين شفتيه كلمة حائرة عجز عن نطقها، ارتجفت أطرافه المتعبة، جلس على كرسي الأنتريه وتمتم بصوتٍ يملأه الوجع:

- أنا متعب وأرتجي راحة الضمير، لكن رحى الشك واليقين تطحن عقلي المعذب في رحاها دونما هوادة.

تنهد "جيف" من أعماق قلبه، وفاضت عيناه بالدموع، واختنق صوته بالبكاء، ثم صاح في أسى:

- ما عدتُ أتحمل وطأة صرخات الضحايا.

تحيَّر "ويليام" من أمره، ثم همس بصوتٍ حفيفٍ:

- هون على نفسك يا صديقي، وأخبرني بما يؤلمك، لعلي أجد ترياقًا لآلامك.

فجأةً، انتفض "جيف" من مكانه، وبدأ يجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا، محمَّلًا بثقل أفكاره المُتزاحمة بقساوة الماضي، ثم اتَّجه بنظراته المنهكة إلى "ويليام"، وشفتاه ترتجفان بكلمات غير مفهومة، ثم صاح فيه بصوتٍ حازمٍ:

- أنت وحدك من يملك ترياق أسقامي يا "ويليام".

هال "ويليام" ما سمعه، فاستطار نحوه، وسأله بصوت متلعثم.

- أنا!!
- نعم أنتَ.

تجهمت سحنة "ويليام"، وسأله بفيضٍ من الحيرة:

- أأنت متيقن من ذلك، يا "جيف"؟!

صاح "جيف" في وجهه:

- نعم، أنا متيقن من ذلك.

التزم "ويليام" الصمت، لكن "جيف" نظر إليه واستغرق يحدق فيه، ولم يحوِّل ببصره عنه، فجأةً، اقترب منه، وصاح فيه بكل ما أوتي من قوة:

- أرجوك، أخبرني بالحقيقة يا "ويليام".

امتعض "ويليام" من تصرفاته، وسأله في دهشة:

- أي حقيقة ترتجيها؟!

تلعثم "جيف"، وهمس بصوتٍ موجوعٍ:

- أرجوكَ، أخبرني بحقيقة ما جرى في (رواندا)، أرجوكَ، أخبرني بالحقيقة ولو كانت مرَّة.

هوت كلمات "جيف" على مسامع "ويليام" كالصاعقة، ترنح مذهولًا، وتعكر صفاء نفسه، واعتلى جبينه قناع من الدهشة، تمتم بصوتٍ خافتٍ:

- ماذا؟ (رواندا)!!.. (رواندا)!!
- نعم (رواندا).

أنفطر "ويليام" من غيوم فكره، ثم صرخ فيه:

- وما شأني بما جرى في (رواندا)؟!

أجابه "جيف" بتهكم:

- لم أتخيل أن فجر بلادي سيأتي يومًا حاملًا بين جنباته سهام الموت للأبرياء، وأن ساسة بلادي، دعاة القيم والحرية، يغتصبون الأوطان، وينهبون ثرواتها، ويشعلون فتن الحقد والكراهية بين أبناء الوطن الواحد، من أجل مصالحهم الضيقة.

طأطأ "ويليام" رأسه، راضخًا للحقيقة المرّة، ثم ترجاه بصوتٍ غضيضٍ:

- أرجوك، دع الماضي للماضي، وكفانا الخوض في أوجاعه وأحزانه.

انتفض "جيف" من مكانه، ثم صرخ بأعلى صوته:

- لن أكف يا "ويليام"، حتى تخبرني بالحقيقة.

احتدم "ويليام" عليه، وأجابه بعصبية مفرطة:

- أتجبرني على الحديث يا "جيف"؟!

صمت "جيف" برهة، وأجابه بصوتٍ وثق:

- لا، يا "ويليام"، لكننا، تعاهدنا منذ الطفولة على الصدق، وتجاوز كل عوائق الحقيقة فيما بيننا، وأنا أعلم أنك صادق الوعد، ولن تخزلني أبدًا، يا بن العم.

تنهد "ويليام" من أعماقه، وتساءل في حيرة ولهفه:

- وما شأنك بـ(رواندا)، وما جرى فيها؟!

صرخ "جيف"، بصوت رعديد:

- تأنيب الضمير يقتلني، وصرخات الضحايا تهزم يقيني بقيم أمتي.

انطفأت شدة صوته، واستطرد بنبراته المعتدلة:

- هل كانت بلادنا تخطُّ أمجادها بدماء الأبرياء، ونحن نختلق لها ألف عذرٍ وعذرٍ، يا "ويليام".

وبينما هما منخرطان وغارقان في جدالهما ما بين الرفض والمنح، اقتحم المكان صوت أنثوي ينبعث من البهو، ويرتفع بنبرةٍ مملوءة بالفزع:

- "ويليام".. "ويليام"؟

قَيّد "ويليام" أوصاله المنفلتة، وأجبر أنفاسه المرتجفة على الهدوء والسكينةِ، ورسم على محيَّاهِ ابتسامةً زائفةً، ثم أجابها بصوتٍ هادلٍ:

- تعالي يا "بيرت"، عندي لكِ مفاجأةٌ.

طَلَّت "بيرت" بملابسها البيضاء الفضفاضة وهي تتمايلُ بجسدها كغصن البان، لكنها تراجعت إلى الوراء خجلٍ عندما رأت "جيف"، ناداها "ويليام:"

- تعالي يا "بيرت"، إنه "جيف".

دخلت "بيرت" على استحياءٍ، ثم دنت من "ويليام" بقامتها الممشوقة وشعرها الذهبيِّ المنساب على كتفيها، وأمعنت النظر بعينيها الزرقاوين في "جيف"، نهض وأقبل عليها مرحبًا:

- مرحبًا "بيرت".

انتفضت "بيرت" كعصفور، وغردت في سرورٍ:

- "جيف" في بيتنا.

ابتسم "ويليام" ابتسامة باهتة، وأجابها:

- نعم، يا "بيرت"، أخيرًا، بعد أكثر من خمسة أعوامٍ نور مشكاة "جيف"، تمحق ظلمة بيتنا.

صاحت "بيرت" في "جيف" وهي تشير إلى "ويليام":

- "ويليام" مفتونٌ بكَ وبرجاحة عقلكَ وبِفكرِكَ الجادّ، ولا يَكُفُّ عن الحديثَ عنْك، وعن بطولاتك، وطالما حدثني عن مغامراتكما معًا، ومن حينٍ إلى آخر يتحينُ الفرصةَ ويتباهى بما أنجزتهُ في المحافل القانونية، وكيف أصبحت واحدًا من أشهر رجال القانون في (فرنسا)، هو َدومًا يتفاخرُ بوجودك على رأس اللجنة الاستشارية لقصر الإليزيه.

تصنَّع "جيف" ابتسامةً زائفةً، ثم همس قائلًا:

- "ويليام" دومًا يبالغُ في أمري.

تنهد "ويليام"، ثم همس قائلًا:

- إنّها الحقيقةُ، ولا ينكرُها إلا حاقدٌ، وأنا بالفعلِ مفتونٌ بـ"جيف" منذُ الصبا.

انتفضت "بيرت" فجأةً، وانصرفت وهي ترددُ:

- سأحضرُ الشاي على الفور.

جلس "جيف" على مقعده، وأغمض عينيه الذابلتين، وأخذ يلتقطُ أنفاسهُ المتسارعة، دنا "ويليام" منهُ وربّت على كتفه، ثم همس في أذنيه بصوتٍ مضطرب:

- "جيف"، لم أراك البتة بهذه الهيئة، فكُفَّ الحديثَ عن الماضي وأوزاره وأوجاعه.

اغرورقت عينا "جيف" بالدموع، وتجلَّت في أعماقه صوت "روهندا"، وهو ينبش في ذاته: "أيؤذيك الوجع سيد "جيف"؟!"، تصاقبت شفتاه رغمًا عنه، وأجابها بصوتٍ باكٍ: "نعم يؤذيني الوجع يا "روهندا"، تردد صوت حكمتها في أذنيه: "إذن عليك الصبر، والتغلب على أوجاعك حتى لا تنكسر".. انتفض "ويليام" من مكانه وأمسك بياقته، وهزّ جسده بقوة، ثم صاح فيه بصوتٍ مرتعش:

- "جيف"، "جيف".

تمرمر "جيف" بين يديه، ثم عاد إلى رشده، ومسح دموعه، وتنهد قائلًا:

- اعذرني يا "ويليام"، أنا حقًّا متعب.

عادت "بيرت" وهي تحمل أقداح الشاي بين يديها.. قدمّت كوبًا إلى "جيف"، ثم مضت إلى "ويليام" وناولته كوبًا آخر، وجلست بجواره والابتسامة تزين محياها، همست قائله:

- سعدت بلقائك يا "جيف".

مسح "جيف" على وجنتيه، محاولًا إخفاء أثر دموعه قائلًا:

- أنا من سعدت بك يا "بيرت".

انزعجت "بيرت" من أثرَ دُمُوعِ "جيف"، المتساقطة على خديه، وعُبوس وجه "ويليام" الغاضب، وكأنّهما قد تشاجرا، صمتّت برهة تفكر في أمرهما، لكنها خشيت من تصرفات "ويليام" الحمقاء، وعصابيته المفرطة، تساءلت في حيرةٍ:

- أراكَ قَابِضَ الوجهِ يا "ويليامَ"، وأراكَ دامِعَ العينينِ يا "جيفَ".

ثم نظرت إلى "ويليام" بضيق، وسألته بصوتٍ حازمٍ:

- أبدر منكَ ما يؤذي مشاعر "جيف"، يا "ويليامَ" كعادتك؟!

تنهَّد "جيف"، ثم أجابها قائلًا:

- الويل كلّ الويل لمن سكت عن الظُّلم، وتعمَّد إخفاء الحقيقةِ، الويل كلّ الويل لمن عاهد وحنث بِعهوده.

انْتَفَضَ "ويليام" من مَكَانِهِ، وصاح فيه بِامتِعَاضٍ:

- أنا لم أحنثْ بِعهودي، لكنّي أخشى من نَفسِي على نَفسي، وأخشى الخوضِ في أَوجاع الماضي.

هَاجَ فَضولُ "بيرتَ"، فتساءلت:

- عن أي أمر تتحدثا؟!

أجبها "جيف" في فتور:

- ما رَأَيتهُ في (رواندا) فاق حدود العقل، والظُّلم الّذي تعرَّضت له هذه الأمة، أَطفأَ نور الأمل في حياتِي، وهأنا أَستجدي "ويليام" ليُخبرني بالحقيقة لكنّه حنث وصافح العناد.

انتفضت "بيرت" من مكانها مذعورة تَردَّد في وجلٍ:

- (رواندا).. (رواندا).

أَجابها "جيف" في دهشةٍ:

- نعم (رواندا)!

- ماذا عَنها، يا "جيفَ"؟!

- أبرياء هذا البلد المسكين كانوا قربانًا لأوثان بلادي، ووقودًا لنار حربهم المقدسة، من أجل إيجاد موطئ قدم في سفوح تلالها، ووقف التَّمدُّد "الأَنْجِلُوسَكْسُونِيّ"، وللأسف، كانت أرواح هؤلاء المساكين بلا قيمةٌ أو وَزْنٌ عند أوثان ساسة بلادي.

تلفَّحت سحنته بالغضب، وصاح بصوتٍ مُوجعٍ:

- إنَّها سياسةُ العهر والغدر والخسة.

انهمرت "بيرت" في البكاء، وأشارت إلى "جيف" بأن يصمت، لم يعرها أي اهتمامًا، واستطرد حديثه قائلًا:

- أكفُّ عن همسي وحديثي، أم أكفُّ عن سماع صراخات الضحايا التي تطاردني في صحوي ومنامي؟ كيف أصمت وأكفُّ عن

حديثي؟ ودماء الضحايا تُطوِّق عنقي، لا، لن أكفُّ، ولن أصمت ما حييت.

صرخ "ويليام" في وجهه:

- أَرجوك، أَنهِ هذا الحديث فورًا، أَنا لا أَعلم ما دار هناك.

انتفض "جيف" واقفًا، وصرخ في وجهه:

- كلَّا وأَلف كلَّا، أَنت تعلم جيِّدًا ما جرى في سفوح تلالها، وفي غاباتها وأَحراشها، ورأيت بأم عينكَ ما حلَّ بنسائها وأَطفالها، فكيف لا تعلم؟! وأنت كنت تجول وتصول في ربوعها، بينما كانت نيرانُ الحقد والكراهية تلتهم أَغصان الحُبِّ والرَّحمة، بينما كانت نيرانُ القبليَّة البغيضة تحرق أَجساد النِّساء والأَطْفال، أَنت تعلم كل ما جرى من قتلٍ وذبحٍ وحرقٍ واغتصاب، يا قائد الفيلق "الفرنسيّ" في (رواندا) أَبان المجازر والمذابح.

اندفع "ويليام" نحوه، وشهق بوجهه وهو يصرخ:

- من فضلك هذا يكفي.

شذر "جيف" إليه بامتعاضٍ، وهمَّ بالرَّحيل قائلًا:

- سأَرحل يا "ويليام"، لكن تذكر جيدًا أن دماء الأَبرياء ستظل تطاردك ولن ترحمك أبدًا.

هرولت "بيرت" خلف "جيف" وأَمسكت به، وأَجلستهُ عنوةً وهي تستجديهُ أَن يبقَى للحظة، أَمتثل لرجائها، ثم ركضت نحو "ويليام" وأَخذته بين ذراعيها وهمست بصوتٍ حنونٍ:

- أرجوك اهدأ يا "ويليام"، فاختلاف وجهات النّظر، لا يحلّ بمثل هذا، والأَمرُ برمته لا يستدعي كُلَّ هذا الغضب.

تنفَّس "ويليام" الصَّعداء بصعوبةٍ بالغةٍ، ثمَّ دفن وجهه الحانق بين نهديها، وأخذ يتأَوَّهُ من أصلاب أعماقه، داعبت خصلات شعره، وربَّتَت على كتفه، حتَّى سكتت صرخات غضبهُ، ثم همس بصوتٍ مُرتجفٍ وكأَنَّهُ يخرجُ وجلَّ السِّنين المنصرمة من بين جدران قَلْبه الأسيف قائلًا:

- أنتِ تعلمين كم أَعاني من ويلات تعذيب الضَّمير.
- أَشعر بما تشعر به يا "ويليام"، أنا مثلك عانيتُ من ويلاته، وحان وقت الخلاص من أَوزار الماضي، أَرجوك أَخبِره، أَن لم يكن من أَجلي، فمن أَجل "هيلين" ويوجين" و"فوستن".

تصبَّ جبينه بالعرق، وأَخذ يتأَوَّهُ من وجعٍ الضمير، ندت من فمه صرخة مكتومةٌ، ثم فرَّ منْ بين يديها، وجلس على الكرسيّ المُقابل لـ"جيف"، أَغمض عينيه وهو يحاول كبح جماح مشاعره المفعمة بالحزن.. وقفت "بيرت" بجواره، جفَّفت جبينهُ، نظر إليها في صمتٍ، ثُمَّ جال بوجهه وغمر "جيف" بنظراته الدَّامعة، كأنه يعاتبه، هرول "جيف" إليه وربَّت على كتفه مُعتذرًا:

- اعذرني يا صديقي، أنا لم أَقصد الإساءة، أو جرح مشاعرك.

تلعثم "ويليام"، وانسكبت عبراته كالسيل المنهمر، قبضت "بيرت" على يديه، وجفَّفت دموعه، وترجَّتهُ:

- الحزن يحصد في دروبه، كُلَّ ما هُو جميلٌ، ويزرعُ داخلنا أَشواك العذاب، ويُسقينا من كؤوس صَبَّارها المُرَّة، أَرجوك دعنا نمضي إلى فردوس المستقبل، واترُك نار جحيم الماضي تنطفئ.

استفاق "ويليام" من ضيق نفسه، وتعلَّقَت عيناه بعينيها، ابتسمت في وجهه، قابلها بابتسامةٍ رقيقة قائلًا:

- دومًا أَنت على حقٍّ يا "بيرت".

استند على كتفها، وشرد يفكرُ، واستغرق في تفكيره، ثُمَّ نظر إلى "جيف" وابتسم يناوشهُ قائلًا:

- سأُخبرُ "بيرت" بما فعلته بالمس "مارجريت" مدرسة التاريخ.
- أَرجوك "ويليام" إنَّهُ أمر محرج للغاية.

تنهد "ويليام" ونظر إلى "جيف" و"بيرت"، وأردف صائحًا بعزيمة المقاتل الشجاع:

- سأخبرك بكل ما جرى في (رواندا) يا "جيف".

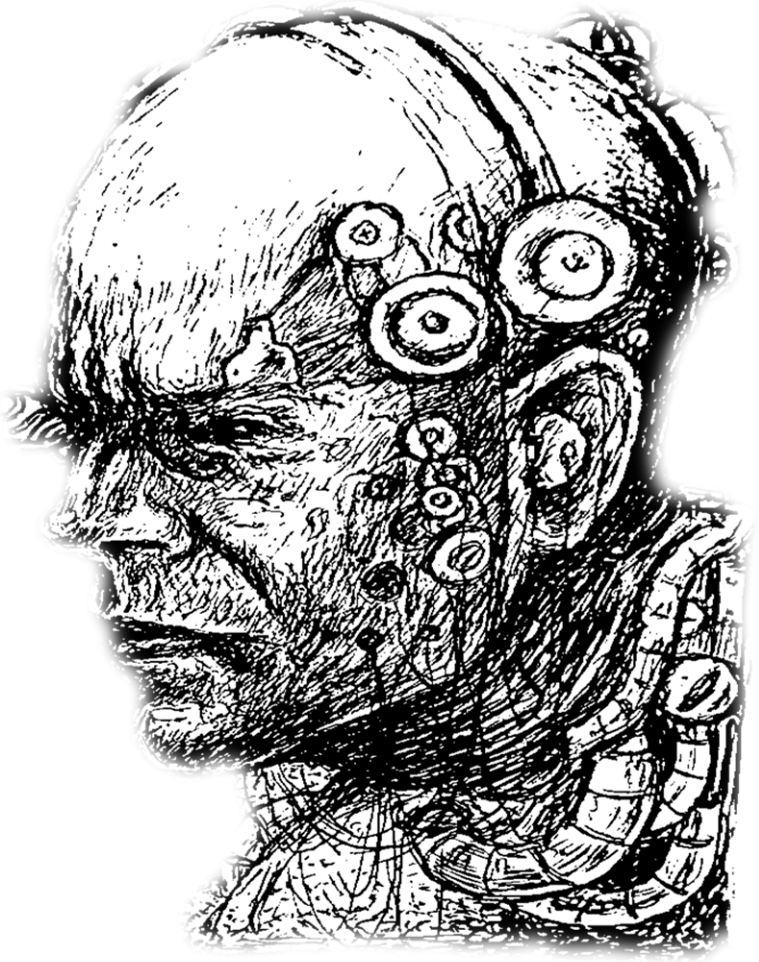

٤

جلس "ويليام" هادئَ النفس، بين "جيف" و"بيرت"، وبدت على ملامحه علامات الرضا والراحة. وتيقّن أن النفس، إن لم تجد ما يصرف عنها أثقال همومها، مالت بصاحبها في وهدة أوجاعه السحيقة، وشغلته عن دروب حياته، وأغلقت أبواب فكره، وسلبته الهدوء والسكينة. لكنه في الوقت ذاته، شعر بالاستياء من آثامه التي ارتكبها في حق الأبرياء، دون أن يُدرك حقيقة ما كان يدور في قلب وعقل من خطط لارتكاب تلك الآثام.

اعتزم "ويليام" فك قيود أعماق ماضيه، ونبش خزائن أسراره، وتحطيم أوثان زيف الحقيقة، ليطهر شرفه العسكري من وصمة عار طغاة قادة بلاده. همس مخاطبًا مشاعر "جيف" و"بيرت"، ومحاورًا هواجسه بصوت مغموم بالحزن:

- ولَّى العمر مسرعًا وأنا أتوهم أني بخير طالما أتجاهل، عن عمد، ما اقترفته يدي في حق الأبرياء، وأتنصل من دمائهم التي لطخت ضمائرنا جميعًا. لكنني تيقنت أني واهمًا، وما زلت أجني ثمار أوزار الماضي؛ من تأنيب الضمير وزوال راحة البال.

انطفأت عيناه البراقتان من الخجل، وهمس بصوت مرتجف يحمل في نبراته أنين العمر، ترددت كلماته في أعماقه وفي أروقة المكان، كأنه يحدثهما معًا عن ماضيه المؤلم، قائلًا:

- أعترف بلا خجل أنني جهلت حقيقة ما كان يدور في (رواندا)، كوني أؤدي واجبي العسكري تجاه جيش بلادي، وأنجز ما يُوكل إليّ من مهام قتالية. نعم، جهلت الأمر برمته، وانغمست يدي في

دماء الأبرياء، تاركًا من ورائي ضميرًا معذَّبًا وروحًا مثقلة بالندم. وحينما انجلت غيوم جهالتي رغم تأخرها، خالفت مهام وظيفتي العسكرية، وتحالفت مع ضميري الإنساني، وساعدت آلاف الضحايا على الفرار من المجازر والموت.

انفلتت نبرات صوته، وندّت من فمه صرخات مكبوتة، هدمت أغوار قلبه المسكون بالوجع:

- لن أُبقَى هكذا، عالقًا في براثن ذكريات الماضي المرهقة، لن أُبقَى أسير آلامي وأشجاني، وحتمًا سأحطّمُ قيودي التي كبلتني ومنعتني من النّهوض والعودة إلى فطرة حياتي، وسأُكفّر عن ذنبي بمساعدة من يحتاجون، وسأُكرسُ حياتي لنشر الخير في هذا العالم الموحش.

أخذ "ويليام" يتنهد ويتأوه كأنه يتألم من جرح قد أصابه، وبعد برهة، تمالك أعصابه، وهدأت أنفاسه المتلاحقة، وغاص يلوك في ذكرياته، يستحضر أحداثًا ولَّت عليها أحداث، وتتراءى لمخيلته مشاهد القتل والذبح المحفورة في ذاكرته، ثم عاد من سراديب ماضيه إلى براح حاضره. جال بنظراته الحادة في وجهي "جيف" و"بيرت"، حتى استقرَّ ببصره الزائغ على قسمات وجه "جيف"، فجأةً، صاح فيه بحزم وصرامة:

- حانت لحظة فراق ضعفي، وفطام خوفي إلى الأبد، والتخلص من ذلك الانهزام النفسي المتأجج في أعماقي.. حانت لحظة مصارحة النفس والإدلاء بشهادتي كوني أحد قادة الفيلق "الفرنسي" في (رواندا)، وكشاهد عيان على جرائم الإبادة التي طالت اليابس

والأخضر، لذا، أنصت لي جيدًا ولا تقاطعني حتى أنتهي من شهادتي، فأنا بالكاد أتذكَّر تفاصيل ما جرى.

أصغى "جيف" إليه، ثم أومأ إليه وأجابه بصوتٍ جاد:

- على رسلك يا "ويليام"، أنا أعي جيدًا أننا نُجاهد جميعًا جاهدين لإرساء مبادئ وقيم بلادنا العُليا التي انتُهِكت من قبل أتباع قوى الشر.

ساد الصمت جنبات الحجرة، واغرورقت عينَا "ويليام" بالدموع، إلا أنهما أبتا أن تنزفا على صفحة وجهه العابس، انقبضت قسماته وتزاحمت في حلقه غصة، وبدأ يخطُّ خطوط حديثه اليأس بصوتٍ خفيضٍ:

- على المرء أن يدرك جيدًا ما يدور حوله من أحداث، وأن يُطلق العنان لفكره ليدور في فلكها؛ حتى يتمكن من التمييز بين الحقيقة وبين براثن الزيف، فما أيسر أن يسعى المرء وراء الأكاذيب، كأنها حقيقة مطلقة.

نظر "ويليام" إلى "جيف"، كأنه يحاول الولوج إلى عقله، ثم أشار إليه بسبابته، قائلًا بصوتٍ حازمٍ:

- أما أنت يا "جيف" عليك معرفة حقيقة الأحداث، وفهم أبعادها المتشعبة، واستكشاف أغوارها وحل ألغازها وفك طلاسمها، وربط كل هذا بأوهاد الواقع؛ عندئذٍ ستدرك جيدًا من يصنع تلك الأحداث من العدم ولماذا؟ وعندما تتجاوز مرحلة ادراك الحقيقة، سوف تعلم علم اليقين من يتحكم في تزييفها، حينها ستقرر إما أن تمضي في ركب الطغاة وتكون يدهم الباطشة، أو تمضي بعيدًا عنهم في دروب المُتعَبين من ويلات الحقيقة، ستختار حتمًا أيَّ الطريقين،

عندها ستتخلص من تأنيب الضمير وقلق الذات وسيشفى شقاؤك الأبدي، لأنك بكل بساطة أدركت تفكير الطغاة أنفسهم، ومحاولاتهم الحثيثة والأبدية لامتلاك كل شيءٍ حتى ولو استعبدوا كلَّ البشر.

افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، ثم صاح بتهكم:

- أَمّا إذا لم تعلم ولم تُدرك حقيقة الأحداث، وما يدورُ من حولكَ، أصبحت حينئذٍ من زمرة الأغبياء، وهم السواد الأعظمُ من البشر، يصدقون أكاذيب الطغاة؛ تارةً بحماية الدين من أعدائه، وتارةً أخرى بحماية الوطن من أعدائه، المهمُ هو إيجادُ عدوٍّ وهميٍّ لتنفيذ مخططاتهم، وللأسف أنتَ في كلتا الأمرين ستكونُ وزمرةُ الأغبياء وقودًا لحروبهم المقدسة، لينالوا بدمائكم ودماء الأبرياء رغباتِهم ونزاوتِهم الشريرة.

انقبضت قسمات "ويليام"، واسترسل في حديثهِ بأوصالٍ متشنجةٍ:

- الحقيقةُ دومًا مؤلمةٌ وقاسيةٌ، الحقيقةُ جحيمُ الوعي يا "جيف"، فلكَ أن تتخيل صعوبةَ ترويض النفس وكبح جماح جهلها كي لا تمضي قدمًا بين أقدام الطغاة، وأن تبقى مع المتعبين من ويلات الحقيقة بين رحى القمع والظلم، متحملًا وحدك تبعات قرارك.

امتعضَ "جيف"، وتحفَّظ عليه قائلًا:

- سيظهر الحمل وينتهي بالمخاض، حتى وإن كان سفاحًا، هكذا هي الحقيقةُ ستنجلي لا محالة، مهما حاول جنودُ الزيف أَدَها أو قتلها.

ضحكَ "ويليام" بسخريةٍ، قائلًا:

- أنتَ واهمٌ يا صديقي، ولا تجرّنُا إلى جدالٍ لا طائلَ منه، والتزمْ بما تعاهدنا عليه من قبل، ودعنا ننجز ما بدأناه.

امتثل "جيف" إلى رغبته، رغم تأففه، ثم همس قائلًا:

- على الرحب والسعة يا ابن العمّ.

صمتَ "ويليامُ" برهةً، وجال بنظراته التائهة في أروقة المكان وهو يرجفُ قلقًا، أخذ نفسًا عميقًا، محاولًا التخلص من هموم ماضه، ثم همس بصوتٍ مرتَقٍ بالوجع:

- منذ بزوغ فجر الإنسانية في ربوع الأرض، سكن الإنسان منطقة وسط شرق (أفريقيا)، وفي تلك الحقبة السحيقة استوطن أقزام "التو" غابات (رواندا) وعاشوا فيها حياة بدائية قوامها الصيد والجمع، وبعد بضع قرون، نزحت قبيلة "الهوتو"- إحدى قبائل "البانتو"- إلى (رواندا)، وأزالت مساحات شاسعة من الغابات، لاستصلاحها وزراعتها، حينها أرتحل أقزام "التو" إلى أعماق الغابات.. تحول المجتمع "الرواندي" من البدائية القائمة على الصيد والجمع، إلى مجتمع أكثر تطورًا، يعتمد على الزراعة.. وفي بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، هاجرت فرقة من محاربي "التوتسي" من هضبة (أثيوبيا) واستقرّت في (رواندا)، وامتهنوا الرعي، وشيئًا فشيئًا اندمجوا تدريجيًا مع مجتمعي "الهوتو" و"التوا" وتزاوجوا منهم، فتحول المجتمع "الرواندي" إلى مجتمعٍ زراعيٍّ رعويٍّ مختلط الأعراق.

استقر أقزام "التو" و"الهوتو" و"التوتسي" في غابات وسهول وسفوح (رواندا) وامتزجوا في أمة واحدة تتحدث لغة واحدة هي "الكينيارواندا"، وتشترك في دين وعادات وتقاليد واحدة.. ومع تطور أنماط الحياة في (رواندا)، من بدائي وصولا إلى زراعي

رعوي، نشأ نظام اجتماعي يرتكز على الطبقية المادية، فيه تُقاس ثروة الفرد بما يمتلكه من رءوس ماشية وأرضٍ زراعية، وهو ما يُعرف بـ"الأبوهاكي"، ولأن محاربي "التوتسي" أولي بأس شديد، استطاعوا فرض سيطرتهم على قبائل المنطقة وتأسيس مملكة "رواندا" تحت سلطة ملك توتسي يطلق عليه "الموامي".

تمتمَ "جيفُ"، وتساءلَ بصوتٍ حائرٍ متلعثمٍ:

- أعذرني يا "ويليام" على المقاطعةِ، وأخبرني ماذا يعني هذا الـ"أبوهاكي" ؟!

أبتسمَ "ويليامُ" متقبلًا اعتذارهُ، وتحول صوته إلى همسٍ خفيضٍ قائلًا:

- "الأبوهاكي" هو نظام اجتماعي قائم على الطبقية المادية، قُسِم فيه المجتمع "الرواندي" إلى طبقتين: طبقة "توتسية" أرستقراطية غنية حاكمة، وطبقة "هوتية" فقيرة كادحة، وقد خضع الجميع، من هاتين الطبقتين، لسلطة "الموامي".

أطرق "جيفُ" إلى "ويليام" بشغفٍ شديدٍ، لكنه شرد فجأة وهو يفكرُ في بنية المجتمع "الرواندي"، استغرقَ في تفكيره، وتخمَّرت في ذهنه بعضُ الأسئلة التي تبحثُ عن أجوبةٍ، ثم عاد من شروده، واسترق ينصتُ إلى "ويليام" بنهمٍ، لعله يجدُ ما يبحثُ عنه..

- .. ظلَّ المجتمعُ "الرواندي" متماسكًا ومستقرًا حتى مطلع القرن التاسع عشر، وطيلةَ هذه الحقبة، لم يشهد تاريخها أي صراعات طائفية بين "الهوتو" و"التوتسي".

نظر "جيف" إليه فجأة بامتعاضٍ، وزمجر فيه غاضبًا، وهو يلوح بقبضته متسائلًا:

- توقف يا "ويليام" للحظةٍ، وأجبني.
- تفضل.
- أنتَ قلتَ أن المجتمع "الرواندي" كان مجتمعًا طبقيًا، أليس كذلك؟

أجابَه بهدوءٍ، قائلًا:

- أكمل بما يجولُ بخلدكَ.
- وأنتَ تعلمُ أن المجتمعاتِ المبنيةَ على الطبقيةِ، تحكمها النعراتُ الطائفيةُ والقبليةُ.

شذر "ويليام" إليه بحنق، ودققَ في ملامحه الجادة، ثم صاح فيه قاطعًا حديثهُ:

- كفاكَ عن هذا الهراء، وانصتْ جيدًا.

انزعج "جيفُ"، من طريقته، لكنه استرق السمع إليه منصتًا:

- أنتَ لم تدرك وتعي من حديثي شيئًا، وكل ما يشغلُ بالكَ هو إيجادُ مبررٍ لتبرئة ذمة بلادنا، أليس كذلك؟!

خجل "جيف" من نفسه، ونظر إلى الأرض في أسف، صاح "ويلْيام" فيه، قائلًا:

- تريَّثَ قليلًا قبل أن تُطلق جمّ هواجسك وأفكارك دون أن تدرك الحقيقة، حتَّى لا تنهشك الحيرة وتتكالب عليك الأوهام، وتصاب بخيبة الأمل، وللمرَّة الأخيرة أقولها: أنَّ الطبقية في (رواندا) كانت طبقية مادية بحتة، تعبِّر عن المكانة الاقتصاديَّة للأفراد، بمعنى

أدقَّ من كان يمتلك رءوس ماشية وأرضًا زراعية أكثر أصبح من الطَّبقة الأرستقراطيَّة الحاكمة، ومن لا يملك الأرض ولا الماشية أصبح من الطَّبقة الدُّنيا، سواء أكان "هُوتيًا" أو "تُوتسيًا".

هزّ "جيف" رأسه، ونظر إليه بعينين وجلتين بالأسف، بعدما تَنَبَّه إلى الحقيقة الدامغة، ثم همس معتذرًا:

- أَنت مُحق يا "ويلْيام"، فقد راودتني عُنصريَّتي "الفرنسيَّة"، كي أمضي في دُرُوب رذيلة الفكر حتَّى أَجد أَلف عُذْر وعُذر لِاغتصاب حُقُوق الغير، وهأنا قد أَدركت خطئي، وأنَّ المجتمع "الرُّوانديَّ" بريء من كُلِّ تلك التُّهم الملفَّقة.

ابتسم "ويلْيام"، وهمس قائلًا:

- بالضَّبط والدَّليل على ذلك أنَّ المستعمر حين جاء إلى (رواندا) لم يستطع التَّمييز والتَّفريق بين " الهوتو" و" التُّوتسي".

هجعت أَنفاس "جيف"، وأنصت إلى "ويليام" باهتمامٍ بالغٍ:

- كانت الحياة في (رواندا) هادئة ومستقرة، حتى جاء المستعمر الأوروبي، وغرس عمدًا بذور فتنته المقيتة في جسدها، ومُنذ أن دنَّست أَقدامه تُرابها، فرق وميز بين "الهُوتو" و"التُّوتسي"، ثمَّ أَذكى رُوح العداء بينهما، ونفث سموم القتل والذبح في كؤوس ضعفاء الأنفس مِن "التوتسي" تارة ومن "الهوتو" تارة أُخرى.

٥

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة مساءً، حين شرعَ "ويليام" فتح خزائن أسرار ماضيه إلى "جيف"، ومُدليًا بشهادته حول ما جرى في (رواندا)، وكيف تحوَّلت من مجتمع مستقرٍ مسالم يضمُّ في جنباته قبائلَ شتّى تتعايش مع بعضها البعض في سلامٍ، إلى مجتمعٍ قبلي يعجّ بالصراعات والنعرات البغيضة، وكاشفًا له عن أسباب تدخّلٍ بلاده في هذا الصراع الدامي.

انقطع "ويليام" عن حديثه وشعر بالحرج من ذاته، كونه أحد قادة العمليات العسكرية في (رواندا)، وأحد الضالعين، بقصد أو بدون قصد في مجازر إبادة "التّوتسي"، ضاق صدره بما رحب من أجنان، وانكفأ أديمه وتعرّق جبينه، انتفض من مكانه، وهرول مسرعًا بخطى مثقلة بالوجع إلى أقصى الحجرة، متجهًا إلى (الفرندا) المطلة على الحديقة، دلف إليها، ووقف بجوار سياجها الحديدي، وارتكز بمرفقيه على "الدرابزين"، أخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، وبعد برهة اعتدل وجفّف جبينه النديّ بالعرق، يبتغي راحة ضميره، وإسكات صوت الماضي بأوزاره في أعماقه المتعبة.

هام "ويليام" بنظراته المليئة بالحزن والأسى في دجى سماء (فرساي)، تراءى له وجه القمر غائمًا ملبدًا بالغيوم، كأنه وجه امرأةٍ شمطاء مخضَّبٌ بتجاعيد الخوف، يذرف سناه الباهت على صفحة الكون كعبراتٍ.

مدَّ "ويليام" ذراعه في الهواء، ومسح بأنامله المرتعشة على وجه القمر الغائم، كأنه يكفكف دموعه، ظلت نظراته متعلِّقة بعنان السماء،

حتى انقشعت الغيوم، وتجلّى وجه القمر كوجه "بيرت" الضاحك.. تنهد وهدأت أنفاسه، وسكتت صرخات ضميره، وابتسم ابتسامة خافتة، وزال وجومه شيئًا فشيئًا، حينها عزم القصاص من نفسه، والإفصاح عن كل حقائق الحقيقة المطلقة إلى "جيف".

ودَّع "ويليام" وجه القمر بنظراته الحالمة، ثم عاد إلى "جيف" و"بيرت"، وجلس مكانه، تعجَّبت "بيرت" من أمره وتبدُّل حاله من حالٍ إلى حالٍ في طرفة عينٍ، فمنذ برهة ترجَّل إلى (الفرندا) بخطواتٍ مسرعةٍ مثقلةٍ بالهموم، وبوجهٍ عابسٍ وأنفسٍ مهدمةٍ، وبعد برهةٍ عاد، يتبختر بخطواتٍ واثقةٍ، وسحنته ضاحكة، نادته بدهشة:

- ويليام"، "ويليام"؟

التفت إليها، ثم أجابها بصوتٍ رهيفٍ:

- ارتأيت نور وجهكِ الفتان ينير عتمة ليلي، وينساب ضياؤه في حنايا قلبي، ويربت على حزني وينزع آلامي، وهأنذا قد عدت إليكِ بيقين قلبي، هائمًا أرتشف من رحيق أنفاسكِ ترياق أسقامي.

ارتبكت "بيرت" وأحمر وجهها من فرط خجلها، فقفزت من مكانها وهرولت إلى الردهة وهي تردد:

- أنا ذاهبة إلى تحضير العشاء.

انصرفتْ "بِيرت"، واستغرقَ "جِيف" في التفكير، وهو يُحدِّقُ النظرَ في قِسماتِ ويليام" الضاحِكةِ، حائرًا مِن أمرِهِ ومن تصرفاته الغريبةِ غير المسؤولةِ، وتسرب إلى هاجسِهِ تعمده الإساءةَ إليه وتجاهلُه، ارتابَ مِنْهُ وضاقَ ذراعًا، فصاحَ في وجهِهِ بامتعاضٍ:

- مالِي أراكَ تتصرَّفُ بحماقةٍ، كأنَّكَ تتجاهلُني ولا تُبالي بوجودي!

ضحك "ويليام" بصوتٍ عالٍ:

- ها.. ها.. ها.

استشاط "جيف" غضبًا من تهكمه، ثم أردف صائحًا:

- أتستهزئ بي إلى هذه الدرجة؟!

أجابه "ويليام" بملء شدقيه، وجسده يهتز من الضحك قائلًا:

- وكأنك "جون هاننج سبيك" في تفكيره.

استشاطَ "جيف" غضبًا أكثر فأكثر من استمرارِ تهكّمهِ، وصاحَ في وجهِه بنفسٍ ضائقةٍ:

- "جون هاننج سبيك"؟!

تغافل "ويليام" غضبه، وأومأ إليه قائلًا:

- على رسلك يا صديقي، وتريث حتى تتبين من أمري.

ثم مضى إليه، وربت على كتفه قائلًا:

- أنا لا أخجل منك البتّة، وأتصرف على طَبِيعَتي بين رهطك، وكيف لي أن أخجل وأنت عضدي وصديقي، وابن عمي، وأنا أثق بك ولا أتهكم منك يا "جيف".

تنفس "جيف" الصعداء، وتحرج من تبرمه من تصرفات "ويليام"، وتأسف قائلًا:

- أعذرني يا "ويليام"، فمنذ عودتي من (رواندا)، وأنا أفرُّ من مواجهة أحزاني وآلامي، وتلتبس الأمور بتلابيب فكري، ولم أعدْ قادرًا على تقدير الجد من الهزل.

تنهد "ويليام"، قائلًا:

- لا مكان للاعتذار بين الأصدقاء، يا "جيف".

استوى "جيف" في جلسته، وتساءل بصوتٍ ممشوجٍ باللهفة:

- دعنا من كل هذا، وأخبرني، لماذا نعتني وشبهتني بـ"جون هاننج سبيك"؟!

أغمض "ويليام" عينيه، وشهق من ترائب أعماقه وأجابه بحزمٍ، قائلًا:

- كي تعي الحقيقة، وتدرك ما كان يدور في فلك الماضي.
- وما شأن "سبيك" بالحقيقة؟!

زفر "ويليام" زفرة مُثقلة بالحزن، ثم تمتم بصوتٍ مُبحوحٍ:

- لكلِّ حدثٍ تفسيرٌ يفسر أسراره، ويحلل أسبابه ونتائجه، وما يعنينا هنا في المقام الأول هو متى وكيف نشب الصراع القبلي في شرق (أفريقيا)؟ لذا وجب عليك الانتباه والتدقيق في كلِّ مرحلة من مراحله على حدة، ثمَّ الربط جيدًا بما حدث ولماذا حدث؟ وإلا غرقتَ في متاهات الحقيقة، ولن تصل إلى مبتغاك أبدًا.

تمعّن "جيف" في قسمات "ويليام" الغليظة، ولمس نبرات صوته الجادة، وأطرق يسمع إليه بكامل وعيه.

- تعلَّمنا في الأكاديميات العسكرية أنّ كلَّ السلطات، سواء أكانت رشيدةً أو فاسدةً أو طاغيةً، تنتهي وتتلاشى أمام سطوة سلطة الدين، فرجال الدين هم قدس الأقداس، هم صانعو الوعي الجمعي لجموع الشعوب، ووحدهم قادرون على تأليب الرأي العام، فالكاهن والقسّ دومًا يدّعيان امتلاك ناصية العلم الإلهي، وامتلاك الحجج والبراهين لتفسير كلَّ الظواهر الغامضة، وكلَّ ما يحدث في

شتّى بقاع الأرض، حتى لو كان حدوثه مجرد صدفة.. من هنا تعلّمنا كيفية إسقاط الأمم والسيطرة على مقدراتها وثرواتها من خلال التلاعب بوعيها الديني.

ارتاع "جيف" من حديث "ويليام"، وانزعج من هذا النهج الخبيث في تقويض وتدمير القيم الإنسانية والدينية للأمم، صاح في وجهه قاطعًا حديثه بامتعاضٍ قائلًا:

- علموكم كيفية إسقاط الأمم؟!

افترَّت ابتسامة ساخرة بملء شدقي "ويليام"، متَهكِّمًا من مثالية "جيف"، واعتقاده البريء في فردوس بلاده الزائف، ثم أجابه قائلًا:

- أعلم يا "جيف" إذا أردنا تدمير أمة من الأمم، فإننا نتدخل في شؤونها رويدًا رويدًا، ثم نفرق بين فصائلها، ثم نعبث بثوابت مجتمعها، ثم نصنع من أصلابها فصيلًا ونعطيه المال والجاه والسلطة، ونجعله طوع أيدينا، في الوقت ذاته، نصنع فصيلًا آخر بصبغة دينية ونعطيه السلاح والمال، ونولي أمرهم رجال دين وعلم جهلاء من صنيعة أفكارنا، يبدلون تعاليم دينهم عن مواضعها، ويؤوِّلونها على أهوائنا، ونجعلهم طوعًا لنا وتابعين لسياساتنا.. وبعد أن ننتهي من تفكيك هذه الأمة، وصناعة فصائل متناحرة، نصنع صراعًا فكريًا أو ايدلوجيًا أو دينيًا بين هذه الفصائل، ثم نتركهم جميعًا يعربدون بمقدرات أمتهم، حينئذٍ سترى العجب، والأدهى والأمرُّ من ذلك، ستجدهم جميعًا في نهاية المطاف يلهثون إليك لنصرتهم.

أمتعض "جيف"، واستشاط غيظًا، ثم صاح فيه:

- التلاعب بوعي الأمم جريمة نكراء لا تغتفر ولا يستهان بها، وحتمًا سينقلب السحر على الساحر.
- التلاعب بالوعي الجمعي وخداعه بالطلاسم الدينية المبنية على ميول ورغبات المتصنعين من رجال الدين والساسة، هو السبيل الفعال لتدمير الأمم من الداخل، يا "جيف."

صرخ "جيف" بحزنٍ:

- سئمتُ من سياسة بلادي البلهاء، وجعلها كذبًا نموذجًا وناموسًا للتمدن والتحضر، بل هي الرجعية بوجهها القبيح.

استسلام "جيف" إلى حقيقة الأمر، وتمتم بصوتٍ مخنوقٍ:

- أنت على صواب يا "ويليام"، لذلك أخرجنا من هذا الواقع البغيض، ومن مستنقعه اللاأخلاقي المبني على الخطيئة.

تفرَّس "ويليام" قسمات "جيف"، ثم همس مترجيًا إياه:

- إذن، أنصت لما هو قادم جيدًا.

أومأ "جيف" برأسه موافقًا، وانصت يستمع إليه:

- كان "جون هاننج سبيك" شغوفًا بالبحث والاطلاع، مولعًا بروح المغامرة منذ صباه، فالتحق بالجيش البريطاني الهندي في السابعة عشرة من عمره، وخلال خدمته، قام بعدة رحلات استكشافية في جبال التبت، واكتشف العديد من المناطق النائية التي لم يسبقه إليها أحد.. وبعد انتهاء خدمته العسكرية، عاد إلى (لندن)، حيث التقى بالكابتن "ريتشارد بيرتون" الذي دعاه للانضمام إلى بعثته الاستكشافية المتجهة إلى (الصومال)، وافق "سبيك" على الفور، إلا أن البعثة تعرضت إلى هجمات عنيفة في مدينة (بربرة)، وكاد يقتل

فيها كلٌّ من "جون هاننج سبيك" والكابتن "ريتشارد بيرتون"، عادت البعثة أدراجها خالية الوفاض دون تحقيق أهدافها.

التفت "ويليام" إلى "جيف"، وأدركه بنظراته الثاقبة وقطع عليه دروب دهشته قائلًا:

- أرى الدهشة تنخر في لبابة فكرك، وتعجبك من حديثي هذا، لكن تمهل وسوف تفطن إلى ما هو أبعد من ذلك.

ابتسم "جيف" ابتسامة باهتة، وهمس بصوتٍ حائر:

- وكأنك بلغت ما يجول في صدري؟!

ابتسم "ويليام"، وهمس بصوتٍ متزنٍ:

- كان التباين جليًا بين "بيرتون" و"سبيك"، ورغم ذلك، التحقَا معًا ببعثة "الجمعية الجغرافية الملكية" المتجهة إلى شرق (أفريقيا)، لاستكشاف منابع نهر النيل، وبعد انصرام عام ونصف على مغادرتها من سواحل مدينة "زنجبار" الساحلية، تكللت جهود البعثة باكتشاف بحيرة "تنجانيقا" الشاسعة، لكن الأقدار لم تمهلها استكمال مسيرتها، لإصابة "بيرتون" و"سبيك" بالإعياء الشديد، فقرر "بيرتون" العودة، لكن "سبيك" تعافى من مرضه وأصرَّ على مواصلة رحلته الاستكشافية وحيدًا، فاتجه شمالًا، حتى تمكَّن من اكتشاف بحيرة عظيمة خلف بحيرة "تنجانيقا"، وأطلق عليها اسم "فيكتوريا" تيمنًا باسم ملكة (إنجلترا)، وادعى أن هذه البحيرة هي منبع نهر النيل.. جن جنون الكابتن "ريتشارد بيرتون" وشكك في مزاعم "سبيك" ورفض الاعتراف بها، حينئذٍ قررت "الجمعية

الجغرافية الملكية" أرسل بعثة استكشافية أخرى بقيادة "سبيك" إلى شرق (أفريقيا) لتأكيد صحة مزاعمه.

وفي الثامن من سبتمبر من عام ١٨٦٠م، غادرت بعثة "سبيك" إلى بحيرة "فيكتوريا"، وأثناء رحلته المشحونة بالصعاب نشب خلاف حاد بينه وبين القبائل الأفريقية، وعانت بعثته ولاقت الأمرين، وواجهت صعابًا جمة من تلك القبائل، لكنه ثابر واستطاع مقابلة ملك (بوغندا) "موتيسا"، وأقنعه بالمرور من مملكته تحت حمايته، وبالفعل وصل "سبيك" إلى شلالات "بيون"، وأستطاع إثبات صحة مزاعمه، وأثناء عودته إلى (لندن) مكث بعض الوقت في (بروندي) قابل فيها ملكها "التوتسي" الذي أحسن استقباله، فأعجب به وبعشيرته، وتذكر كل الصعاب التي واجهته من القبائل الأفريقية، فتخمرت في ذهنه فرضية غريبة.

ضحك "ويليام" بسخرية لاذعة:

- ها.. ها.. ها.

اجتاح "جيف" اضطرابٌ عميقٌ، وتملّكه الذهول، ولم يجد سوى التساؤل:

- لماذا تتهكم وتضحك في آن واحد هكذا، يا "ويليام"؟
- أضحك لأن "سبيك"، وضع بذرة الطائفية في (أفريقيا).
- كيف؟

اعترى أديم وجه "ويليام" مسحة حزن عميق، ثم همس بكلمات ممزوجة بالأسى:

- لأنه بكل بساطة، أفترض من تلقاء نفسه أن الجنس الأفريقي الأسود، ما هو إلا جنس عاجز عن تطوير ذاته، وغير قادر على بناء حضارته الخاصة، ويحتاج إلى جنس أرقى منه ليقوده إلى بناء الحضارة.

اجتاح "جيف" موجة غضب، وارتفع صوته بِصَراخٍ مدوٍّ:

- ماذا؟!

همس "ويليام" بِكلماتٍ غاصبة، ساخرًا:

- وما زاد الطين بلّةً أنَّ "سبيك" زعم أنَّ أصل "التوتسي" يعود إلى (إثيوبيا)، وأنَّهم ينحدرون من نسل نبي الله "دَاوُد"، وزعم بأنَّهم شعب حامي، وأنَّهم أرقى من قبائل (أفريقيا)، بل وشطح بخياله وأجزم بأنَّهم أوروبيون بجلد أسود.

زمجرَ "جيف" من أعماقه، وصاحَ بصوتٍ أجشّ غليظٍ يشبه هدير الرعد:

- ليقول "سبيك" هذا ما يقول، وليفترض ما يفترضه.

تهكم "ويليام" من صياحه، وردّ عليه قائلًا:

- تحولت فرضية "سبيك" إلى حقيقة راسخة في أذهان قبائل شرق (أفريقيا)، "فالتوتسي" زعموا بأنهم ذلك الوهم، والأكثر من ذلك أن المستعمر الغربي استغل هذه الفرضية كستارٍ يخفي وراءه أطماعه الاستعمارية في (أفريقيا).

صمت "ويليام" برهة، وأردف هامسًا بصوتٍ مبطن بالعجز والضيق:

- وللأسف أصبحت فرضية "جون هاننج سبيك" نبراسًا للقوى الاستعمارية في نهب ثروات الغير، وخاصة شعوب (أفريقيا).

ارتعد "جيف" واهتزّ جسده، واحمر وجهه وعقد حاجبيه، وصاح بصوتٍ مبحوحٍ قائلًا:

- أنت محق يا "ويليام" فالتلاعب بالوعي يهدم أممًا ويسقط أخرى.

أطبق "جيف" فمه على أنفاسه برهة، ثم نفث زفيرًا عاصفًا، وصاح قائلًا:

- إذن، عقد "جون هاننج سبيك" صفقته مع الشيطان لاكتشافِ منابع أنهار الدم في (أفريقيا)، بدلًا من منابع نهر النيل.

أعترض "ويليام" على طرحه، وهمس موضحًا:

- لا يا صديقي، الخطأ ليس خطأه، إنما خطأ من استغل هذه الفرضية وهذا الهزل، وتلاعب بوعي الأبرياء، وسلب منهم إرادة التفكير.

٦

تعافتْ "روهندا" من أسقامها، وتأهَّبت لمغادرة مستشفى "كيجالي" العسكري، والعودة إلى ديارها، بعدما قضت أكثر من شهرين بين جدران المرض، جمعت أغراضها، ثم وقفت وسط غرفتها وشملتها بنظرات دامعة، خطت بخطى مثقلة بالحزن إلى جدرانها ولمستها بأناملها المرتعشة، ناجتها بصوتٍ شجيٍّ:

- أعلمُ بأنَّكَ جدرانٌ صمَّاءٌ بلا قلبٍ، لكنَّكِ وَهبتني الأمان وقت خوفي، واحتويتِ ضعفي، وحضنتِ دموع قلبي، ونزعتِ الأسقام من جسدي.

تهكَّمت "روهندا" من بئسها، وضحكت بسخريةٍ مرَّةٍ، ثم صاحت تسخر من واقعها:

- والإنسان بقلبهِ النابضِ بالضمير، زرعَ أشواكَ الحزن في قاطرتي، وأثقل هموم كاهلي بسهام بطشه وغيه وظلمه، فقلبٌ من حجر صوانٍ قد يكونُ خيرًا من قلب ألفِ عابدٍ.

استفاقت من وجومها على صوت صرير مزلاج الباب، التفتت إليه وانتظرت تترقب من الطارق، دخل الطبيب "أوجين" بسحنته الغابرة، وألقى عليها التحية بصوتٍ حزينٍ، تفرست وجهه العابس، وتفرست عينيه البراقتين بالدموع، ثم دنت منه وهمست بصوتٍ حنونٍ:

- مالي أراك عابس الوجه، متجهمًا، هكذا يا بُنَيّ؟!

حاول الطبيب "أوجين" حبس دموعه، مُخفيًا عمق مشاعره المتألمة من فراقِها، لكنه لم يُفلح في مقاومة مشاعره المُتلاطمة، فانهار في نوبةِ بكاءٍ مرّ، تعالت أنّات نحيبه ومزقت أنفاسه الواهنة، دنت منه، وأغدقته بنظراتها الحانية، داعبت خصلات شعره المجعد، ومسحت على جبينه بلمسةٍ حنونةٍ تُلامسُ نياط قلبه، ثم ضمته إلى صدرها بدافئ حنان الأمومة، ربتت على كتفه حتى هدأت أنفاسه المرتجفة، تنهد، وأوجس بدفء مشاعرها يتسللُ إلى قلبهِ المُثقلِ بالهمّوم، يخفّفُ عنه لوعة فراقها المُؤلمة.. رفع رأسه على مهل، ونظر إليها بنظراته الزائغة، كأنَّه يخلد لحظة وداعها في ذاكرته، ثم همس بصوت موجوعٍ بالحزن:

- حانت لحظة الفراق والوداع، يا أُمَّاهُ.

طوقته بابتسامتها الرائفة، وهمست بصوتٍ خافتٍ:

- الوداع رفيقَ الفراقِ يا بني، وأوجاعُه تُغلق أبواب اللِّقاء خلف سَراديبهَا المغلقة، لا تَقُل وداعًا أَيّها الطَّبيبُ الطَّيِّبُ، بَلْ قل إِلَى المَلْتَقَى في الْقريبِ.

غام الطبيب "أوجين" خلف أوجاعِ الماضي، وجرفتهُ ذكرياتُهُ المؤلمةُ عنوةً إلى لحظة مقتل أمه أمام عينيه، وهو طفلٌ صغيرٌ غضُّ العودِ.. قتلوها في غفوةٍ من الضميرِ الإنسانيّ، وألقوها في لحود النسيانِ، صاح في أسى:

- تمنيتُ وجود أمّي في لحظات ضعفي، تمنّيتُها تبدد وحشة أيّامي، وتؤنسُ وحدتي، لكنها الحقيقة المرَّة؛ الأرواحُ أن مضتْ لا تُعودُ.

دنا الطبيب "أوجين" منها، وأحاطها بيديه، وتأملَ قسماتها الحزينةَ، ثم همس بصوتٍ مخنوقٍ بالدموع:

- منذ أن رأيتكِ، رأيتُ فيكِ حنان أمي، وتعلَّق فؤادي بهمْسكِ العطوف، لكنَّ القدرَ سَلَّ نصْلَ وداعِه ومزَّق حبلكِ السريَّ من داخلي، ليبقيني في وهدة يُتْمي.

تأملته، كأنها أرادت إخماد ثورة بركان حزنه، وكسرت قلبه، فهمست بصوتٍ هادئٍ:

- يا بُني، هل الأحلام من العدم؟

أومأ إليها برأسه نافيًا، وأجابها ببؤس حاله قائلًا:

- لكنها في حقيقة الأمر أوهام، يا أُمَّاهُ.

- لا، يا بُني، بل هي حقيقة ما يجول في أنفسنا من أفراح وأتراح. يا بُني، الأحلام مرآة نرى فيها جمال وقبح ما فينا؛ نفرح بالجميل منها، ونحزن ونخاف من القبيح منها، دون أن نسعى لإصلاح ما فينا من عيوب. هكذا نحن البشر، نداوي الحزن بالحزن، ونبكي من ويلات الأيام، دون أن نصنع لأنفسنا ممراتٍ آمنة تقينا أوجاع الحزن وضربات القدر. يا بُني، لا تحزن، ولا تندم على ما فاتك، وانهض كلما تعثرت، فأنت وحدك القادر على إمداد نفسك بالأمل، حتى وإن كان هذا الأمل أوهامًا.

فردت ذراعيها في الهواء، ودثرته في حضنها الدافئ، ثم همست في أذنيه:

- هلُمَّ إلى ضمة حضني، كلما مسَّ الحنينُ قلبكَ.

أرتمى بحضنها، كطفلٍ ضائعٍ يترجَّى حضنَ أمهِ منذ زمنٍ بعيدٍ، وهمسَ بصوتٍ شجيٍّ:

- لا ألوم القدرَ وقد مضى حُكمهُ، ولنْ أمهلَ الماضي يسلبِ أحلامي، يا أُمَّاهُ.

دقَّ طرقٌ خفيفٌ على صفحة باب الغرفة، ثم دخل الأبُ "أرنست" يحدِّق النظر في قسمات وجه الطبيب "أوجين" الدامعة، مضى إليه وصافحه، واستشعر بوقع أنفاسه المتوجّسة، ونظراته المنطفئة من شدّة البكاء، ربتَ على كتفه برفقٍ، ثم همس بصوتٍ حنونٍ يداعبه:

- كُفَّ عن مغازلة أمّي، فأنا مشتاقٌ إليها أكثر من أي وقت مضى.

أرخى الطبيب "أوجين" كتفيه، وأطلق زفرة مهدمة، ثم همس بصوتٍ باهتٍ:

- لوْ كانَ الأمرُ بيدي، ما فارقتُ الأمّ "روهندا" ما حييتُ، هي صارتْ نبعَ سعادتي.
- أتفهَّم مشاعرك النبيلة تجاهها، فأنا مثلك أُشاركَ يتم الأم، فمنذ أن رحلت أمي، أولتني الأم "روهندا" رعايتها وحنانها، ووضعتني موضع أبنائها، فهي أمٌّ لكلّ من فقدَ أمَّهُ، وتُشعُّ بحبّها وحنانها على الجميع.

ارتسمت على شفتي الأب "أرنست" ابتسامة خفيفة، فهمس مُخاطِبًا إياه قائلًا:

- أيها الطبيبُ "أوجين" ذو القلبِ الطيّب، كلما طرق قلبك حنين الاشتياق للأم "روهندا"، تذكر أننا عائلتك، تعال واقض معنا ومعها بعضًا من وقتك، هي تستحق ذلك.

جفَّفَ الطبيبُ "أوجين" أطرافَ دموعه، وابتسمَ ابتسامةً باهتةً، وقال بصوتٍ واهنٍ:

- إذن سأمضي إليها طيلت عُمري.

التفت الأبُ "أرنست" إلى "روهندا"، وأمسك بيديها، مخاطبًا صمتها، قائلًا:

- حانَ وقتُ الرحيلِ، والعودةِ إلى الدّيارِ يا أُمَّاهُ.

تمعنت "روهندا" في طبيب "أوجين" بنظرة رقيقة حانية، ثم فَارَقَتْ شفتيها همسة خافتة تُعَبِّرُ عن أملٍ دفين:

- سأظلُّ أشتاقُ إليكَ كشوقي لـ"يوجين"، فلا تحرمني النظرَ إليكَ أيها الطبيبُ الطيبُ.

ترقق على شفتيه ابتسامة رقيقةٌ، وأردف قائلًا:

- وأنا سأشتاقُ إليكِ، يا أُمَّاهُ.

تنهد، وتثاقل صدرهُ، وأغمضَ عينيه محاولًا حبسَ دموعه خلف جدران صبره، ورفَّ بجفنيه يمعنَ النظرَ في قسماتها، كأنه يودُّ حفظ آخر صورة لها في ذاكرته، ثم همسَ يخاطبُ نفسهُ أكثرَ ممَّا يخاطبُها:

- إلى اللقاء سيدة "روهندا."

شذرتَ إليه بحزنٍ، وعيناها تلمعانِ بالدموع، ثم صاحت فيه:

- قل لي يا أُمَّاهُ.

هزَّ رأسه بأسف، دون أن ينبس بكلمة، وبعد برهة أجابها بصوت خفيتٍ:

- وداعًا يا أُمَّاهُ، وإلى أن يجمعنا القدر مرةً أخرى.

أجابته بابتسامةٍ عريضةٍ، ولوَّحتْ إليه بيدها، ثم انصرفتْ مع الأبِ "أرنست"، ومضت معه عبر الأروقة المزدحمة بالمرضي، حتى

وصلا إلى سيارته "الفيات"، وضع الأبُ "أرنست" حقيبة ملابسها ومتعلقاتها وأغراضها في شنطةِ السيارةِ، ثم أجلسها في المقعد الأمامي، وذهبَ مسرعًا لإحضارِ تصريحِ الخروجِ، وبعد برهة عادَ وجلسَ بجوارها خلفَ عجلةِ القيادةِ، وأدارَ محرك سيارته المتهالكة، ثم خرج من المستشفى مسرعًا متجهًا جنوبًا صوب قريته (نجوما).

جلست "روهندا" صامته شارده، وقد تزاحمت بشتاتِ فكرِها لحظاتُ الفراقِ، فراودتها لحظةُ فراقِ زوجِها "موليسا"، ولحظةُ فراقِ أطفالها "يوجين" و"سارة" و"نيانا"، ولحظةُ فراقِ الطبيبَ" أوجين".

تذكرتْ "روهندا" كلَّ المواجعِ، وكلَّ الأحزانِ القابعةِ في سويداء قلبها، فكيفَ لها نسيانُ مقتلِ زوجِها وأطفالها؟ وكيفَ لها نسيانُ "جيف" بحديثِهِ المفعمِ بمشاعِرِهِ الصادقةِ؟ وبحثِهِ الدؤوب عن الحقيقةِ، وعن دورِ بلادِهِ المخزي.. حاولتْ الهروبَ من قصماتِ الدهرِ الموجعةِ، والتنصلَ من ذكرياتِ الماضي المؤلمةِ، لكنّها ظلّتْ حبيسة وهدتِها، حتى اقتحمَ الأبُ "أرنست" شرودَها، وقطعَ حبلَ أفكارِها، حين نداها بصوتِهِ الغليظِ:

- أُمَّاهُ.. أُمَّاهُ، كيف حالك يا أُمَّاهُ؟

لم تنتبه إليهِ، أحدق النظر إليها، وتمعن في سوادِ مقلتيها الشاردةِ، ونادَها ثانيةً بصوتِهِ الأجشّ:

- أُمَّاهُ.. أُمَّاهُ.

هَزّها غلظة صوته، فانتبهت إليه وأجبتُه بصوتٍ مبحوحٍ تائهٍ:

- ماذا؟

تلعثم الأب "أرنست" ثم صمت، وانغرز بوجهه الشاحب في أفق طريقه، شحذت بنظراتها الحادة في وجهه، وحاولت معرفة ما يجول في نفسه، لكنه تهرب من نظراتها الفاحصة، وظلّ صامتًا، لكنها أصرت على سبر أغوار أفكاره، اقتحمت صمته وسألته:

- ماذا تخَّفي وراءَ صمْتكَ يا بني؟

ارتبك الأب "أرنست"، وتهته قَائلًا:

- لا شيء يا أُمَّاهُ.

أوشتْ قسماتهُ بإخفاء شيء ما بصدره، فصاح يخفي ارتباكه:

- صدقيني لا شيء، يا أُمَّاهُ.

تلفَّحت سحنته بالخجلِ، وبدت عليهِ أماراتُ الضَّيق، محاولًا الهروب من نظراتهَا العاتبة، لكنَّها أَقْبلَتْ عليهِ وسألَتهُ بِصوتٍ هادئ:

- أصدقني القول يا "أبانو".

خجل الأب "أرنست" من نفسه، وأجابها بصوتٍ مترددٍ:

- الأمر يتعلَّقُ بِـ"كابوجا" يا أُمَّاهُ.

انكدرتْ سحنتها، وزئرتْ فيه:

- وماذا يريد هذا الوغد العفن؟!

أجابها بصوتٍ مثخن بالكاد يسمعُ:

- يطلبُ الصَّفحَ والغفرانَ.

شردت على وجهها، وتعلقتْ عيناهَا بزرقَةِ السَّماءِ الصَّافيةِ، وسَرحتْ بقلْبهَا النَّازفِ بالوجع في براح الكَون، وتذكَّرت مَا اقترفَتهُ يدُ

هذا الوغد الأَشر في حقِّها، تشَنَّجتْ أَوصالها، والتمعت عيناها بالغيظ، وهمستْ تُخاطبُ ذاتها فِي صمتٍ:

- حانت لحظةُ جمع شتات نفسي من دُروب أحُزانهَا وآلامها، ومُواجهة هذا الوغد وسؤاله: لماذا قتلت زوجي؟! لماذا اغتصبت براءتي، ووأدت أَحلامي؟! لماذا تركتني وحيدة أتجرع كؤوس الذل والانكسار؟!

ازددت أنفاسها، وتصاعدت تتعارك مع أنين صدرها المُقيد:

- حانَ وقتُ القصاص من ضعفي، حان الوقتُ لأهدم أَصنام خوفي، حانَ الوقتُ يا نفسي.

فجأة صاحت بلا وعيٍ، وارتفع صوتها المدوي حاملًا صرخةً غاضبةً من أعماق روحها الجريحة:

- سأسأله لماذا قتل روافد الحياة في قَلْبي؟!

أنفزع الأبُّ "أَرنست"، وهزتهُ صرخاتها، وخفق قلبهُ، فأَسرعَ إليها بوجهٍ مُتوجِّسٍ، وسأَلَها بصوتٍ خافتٍ:

- أأَنتِ بخيرٍ، يا أمَّاهُ؟!

صاحت فيه:

- نعم أَنَا بخيرٍ، وموفقةٌ علَى مُوَاجهة هذا الوغَدِ العفن.

أوقف الأب "أرنست" سيارته بقارعة الطريق، وقد تجمد مكانهِ مذهولًا، لا يصدق ما سمعه، ففغر فاهه، وكادت عيناه تخرجان من محجريهما من شدةِ دهشته، مُتمتمًا بصوتٍ خفيضٍ:

- أتوافقين على الصَّفح عن "كابوجا"، يَا أُمَّاهُ؟!

شحذت بصرها نحوه بنظراتها الثاقبة، وبدت ملامحها قَويَّةً ومتماسكةً تُخفي وراءها خوفًا هاشًا، تلاشى أمام ثبات عزيمتها، ثم أَجابته بِصَوْت قاطع لا يتلَكأ:

- ولما لاَ؟!

ابتسمت أساريره، وارتسمت الفرحة على وجهه البريء، لكن سرعان ما فاجأته قائلةً:

- لَكِن بِشَرطٍ.

هاجسته الدهشة، فنظر إليها بِحيرةٍ، متسائلًا:

- شَرط؟!

- نعمْ.

- الصَّفحُ والغفرانُ ليس لهما شروط، يا أمَّاهُ؟

اَمتعضت من ردّه، وصرخت فيه بصوتٍ عالٍ:

- شرطِي الوحِيد هو مواجهة هذا الوغدِ عند باب بيتي، فِي حضور أهل القرية.

- إِذَنْ تُريدينَ عقدَ جلَسةِ "نَاكَاكَا"، يَا أمَّاهُ؟

شذرت إِلَيهِ، وصاحت فيه:

- لتكن مَا تكون، أنا لا أَرغبُ إِلَّا فِي مُواجهته وجهًا لِوجهٍ وفِي العلَنِ.

أَخفَضَ الأبُ "أرنست" بصرهُ إِلَى الأَرضِ، وأَجابها بِخجل يَخالطهُ الحرجُ، قائلًا:

- سأُخبِرهُ بِالأَمرِ، يا أمَّاهُ.

ربَّتت علَى كتفه، وهمست تُخاطبُ أعماقَهُ:

- أَنتَ لا تعلَمُ ما فعلَهُ هذا الوغدُ يا بني، ولَن يتحمَّلَ عقلك بشاعتهُ.

انساب الصَّمتُ بينهما وجاسَ يبدِّد حروف حديثيهما المخضَّب بالوجَع والحيرة، فَعادت "روهندا" إلَى شرودها، ومضى الأَب "أَرنست" فِي طريقهِ ضيق النَّفسِ يفكرُ فِي أَمر "كابوجا" حتى لاحت مشارفُ بيوت قريَتهِ بأَسطحِهَا القرميديَّة، وبعد برهة وصل إلى مفترق طرق، فاتَّجهَ شرقًا مع منحدرات الطَّريق، ومال يسارًا وأخذ الطَّريق التُّرابيَّ الذي يفضي في نهايته إلى تخوم قَريته.

توقَّف الأَب "أَرنست" بسيَّارته أَمام بيتِ "روهندا"، نزل منها، وأخذ بيدها وأدخلها إلى بهو بيتها، فألقت بجسدها المُتعب من وعثاء السَّفر على الكنبة الخشبيَّة المعبقَّة بذكريات الماضي، ثم هرول ثانية إلى سيَّارته، ثم عاد وهو يحمل حقيبة ملابسها وأغراضها، وضعها على الأرض، ثم جلس بجوارها، وهمس يسترضيها بصوتٍ مرتقٍ بِالعُطف:

- أنا لا أبتغي إلا إرضاءكِ، يا أُمَّاهُ.

داعبت قسمات وجهه بأناملها، وأجابته بصوتها الحنون قائلةً:

- أعلم ذلك يا بنيّ، فأنتَ ابنُ قلبي، ووجودكَ في حياتي عوضني الفقدَ، فأنا ما زلتُ أشعر بأنفاسِ "يوجين" تحاوطني كلما رأيتك.. يا بنيّ لا يغتص قلبكَ رفقًا على هذا الوغد، وستعلم عما قريب بجلية أمره.

لملم الأبُ "أرنست" ذيول هواجسه، ووقف بين يديها في خشوع الابنِ البارِّ، وقضت نبراتِه بإنهاءِ حديثِه قائلًا:

- أراكِ على خيرٍ يا أُمَّاهُ.

ابتسمت "روهندا" ابتسامةً رقيقةً، وهمست بصوتٍ رؤوم:

- أراكَ على خيرٍ، يا بنيّ.

انصرفَ الأب "أرنست" لحال سبيله، أغلقت "روهندا" باب بيتها على شتات أوجاعها المتناثرة ما بين الفقد والوداع والمواجهة، ثم هرولت مسرعة إلى حجرتها، جثت على ركبتَيها، جرّت شنطة من القماش البالي من أسفلِ سريرها، وحملتها بينَ نهدَيها، وعادت بها أدراجها، ثم وقفت بجوارِ الكنبة، وأفرغت محتوياتِها، وهي تحدّق النظر فيها، أمسكتْ جلبابًا أخضر صغيرًا وضمته إلى صدرها وهي تتأوه، فغمرته بقبلات طافحة بالوجع، ثم جلست على الكنبة وبدأت الذكريات تطويها وتقلبها على جنبيها، حتى تدفّقت خيوط الظلام وأقبلت جنود الليل تهدم أوصالها، حتى سبلت أجفانها في وهدة النعاس، وغاصت مكانها في سبات عميق، وفي الصباح تسللت أشعة الشمس من نوافذ الجدران، ورويدًا رويدًا غمرت وجهها المُجهد، استيقظت من نومها، ورفت بعينيها ثم أغمضتهما هربًا من سناها، وبعد برهة نهضت تتلفَّت من حولها وقع بصرها على ملابس زوجها وأَطفالها، انتفضت مِن مكانها، ولملمتها على عجل، ووضعتها فِي الشَّنطة، ثمَّ أَعادتها إلى مكانها.

تناولت إفطارها، ثم جلست بباحة البيت تحتسي كوبًا من الشاي، فزاغ بصرها مع الأطفال وهم يمرحون في الساحة، توهمت صغارها يمرحون ويلعبون مع أطفال القرية، أفاقت من أضغاث أحلامها، ودلفت إلى حجرتها تعيد ترتيبها، وبعد أن انتهت، همَّت بترتيب باقي حجرات البيتِ.

انصرفت أمواج النهار، وما زالت "روهندا" ترتب حجرات بيتها، لكنها توقفت فجأةً، حين أطرقت السمع إلى حفيف صوت الأب "أرنست" يغزو باحة بيتها، فهرولت إلى الباب وفتحته، ثم شذرت بنظراتها الواجمة في وجهي "موهيري" و"ندوري" ابني "كابوجا"، ولت مدبرةً إلى بهو البيت وجلست على الكنبة، اقترب منها الأب "أرنست"، قائلًا:

- مساء الخير، يا أُمَّاهُ.

اتجهت إليهِ بنظرات ساخطة، ثم أجابته بصوتٍ يملأه الغضب:

- عممت مساءًا.

دنا منهما أكثر بخطواتٍ حذرةٍ، وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ رقيقةٌ، وأشار إلى "موهيري" و"ندوري"، وخاطبها مُترجِّيًا:

- هل تسمحي لهما بالدخول؟ يا أمَّاه.

أدارت وجهها بعيدًا عنهما، ولم تجبه، فهمس في أذنيها بصوتٍ يتدلَّى منه الأمل:

- يا أمَّاه "موهيري" و"ندوري" ليس لهما ذنبٌ فيما حدث.. يا أمَّاه "ندوري" كان صديق "يوجين" المقرب وكثيرًا ما أنقذهُ من المخاطر.. استحلفُكِ بروح "يوجين".

خفق قلبها وتسارعت خفقاته، وجثم الضيق على أنفاسها، واستغرقت في صمتها، أندفع "موهيري" نحو قدمها، وجثى بين يديها يترجاها في انكسارٍ وذلٍ بصوتٍ يفطرُ منه الحزن:

- يا أمَّاه أعلم أن الجرح عميقٌ، لن تطويه الأيام أبدًا، لكني أستحلفك، أن تصفحي وتغفري جرم أبي، فالصفح سراج الطيبين أمثالك.

أندفع "ندوري" هو الآخر، وركض نحوها وأمسك بيديها وقبَّلها، وتوسَّل إليها بصوته الباكي:

- يا أمَّاه، ولت شدة أبي، وانحنى صلبه، ورقّ عظمه، وقيده المرض في فراشه.. يا أمَّاه، أبي في نزعه الأخير، أرجوك أصفحي عنه.

التمعت عيناها بنظراتٍ قاسيةٍ، وتردَّدت صرخات استغاثتها إلى الوغد "كابوجا" في أعماقها المسحوقة، تلفحت سحنتها بالغضب، ونفرت عروق عنقها، وانفجرت تصرخ فيهما بغضب:

- كفاكما.. كفاكما.

أسدل الصمت سدول رهبته على جدران البيت، وانتحى "ندوري" بعيدًا عنها، لكن "موهيري" ظلَّ جالسًا بينَ يديها يستجديها، حتى استنزف حدود صبرها، نظرت إليه بعينيها الطافحتين بالغضب، ثم أجابته بلهجة صارمة:

- قلت ما عندي، ولن أتنازل عنه أبدًا.

أسكت الأبُ "أرنست" "موهيري"، وطلب منه الابتعاد، ثم دنا من "روهندا"، وهمس بصوتٍ خفيضٍ:

- لكِ مطلقُ الحرية يا أمَّاه.

انطفأت آمال ابني "كابوجا" "موهيري" و"ندوري" في الصفح عن أبيهما، لكنهما في الوقت ذاته يرغبان في إنهاء الأمر برمته في أقرب وقتٍ، اقترب "موهيري" من الأب "أرنست" وأفصح له ما يجول بصدره، تفهم الأب "أرنست" استعجاله، فنظر إلى "روهندا" قائلًا:

- يا أمَّاه أرى عقد جلسة المحاكمة بعد الغِد، عقب الانتهاء من القداس.

تفرّست وجوههم في وجلٍ، وأومأت إليهم برأسها، ثم صاحت فيهم بأسى:

- لن تغفو عزيمتي ولن تلين، أنا ما عدت اكترث بخوفي، وسأواجه القاتل، حتى تغفو أحزاني وأوجاعي.

ارتجفت أوصالها، وأخرجت أتون غضبها من أعماق أنفاسها المحترقة، وولَّت مدبرة إلى حجرتها وهي تردد:

- إلى الملتقى، عندما تدق أجراس الحق في ربوع قلبي.

٧

لم يخطر ببال "جيف" يومًا أن فرضية "جون هاننج سبيك"، التي تمخَّضت من وهم خياله، قد تحولت إلى حقيقة دامغة في واقع يموج بالطمع والجشع، واقع سقيم يتذرَّع فيه الظالم بالأباطيل من أجل اغتصاب ونهب ثروات الضعفاء.. لكنه في الوقت ذاته ارتاع من تلقف الغرب بما فيهم قادة بلاده فرضية "سبيك" وجعلوها درة تاج ملكهم القائم على السلب والنهب واستعمار الأوطان واستعباد الشعوب.

تصلب وعاء فكره، وازداد وجله من تلحف عصبة الاستعمار الغربي بعباءة سامية وحامية الأجناس من أجل نيل صكوك القتل باسم الدين.. التقط " جيف" أنفاسه، ثم صاح بصوتٍ غاضبٍ:

- الجُرح لا يؤلم إلا صاحبه، والغدر دومًا يحطُّ بالعهود، والكذب وطن الحالمين بالخلود، وإن أصدق لحظات صدق النفس البائرة، هي لحظة وقوفها في استعلاء وتجبر على أشلاء ضحاياها، وتباهيها بظلم هذا وقتل هذا وسفك دم هذا.

انطفأت بنات شفتيه، وأطبق الصمت على أروقة المكان، وتجهم وجهه، وظل على حاله يتلوى على صهوة آلامه، ويغمغم بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- الطمع والجشع أبواب كل مفاسد الحياة.

استشعر "ويليام" بالراحة ورحابة صدره، من فطنة "جيف"، فهمس قائلًا:

- أصبت كبد الحقيقة يا صديقي.

حاول "ويليام" لفت انتباه "جيف" وأنوائه عن تقززه من بهتان منارات حرية الغرب الزائفة، نادى عليه بنبرات صوته الجادة:

- "جيف".. "جيف".

التفت إليه، وابتسم بابتسامة باهتة، ثم أجابه قائلًا:

- ماذا؟

أغْمض "ويليام" عينيه، ثم سأله بدهاء، وبنبرةٍ ماكرة:

- "جيف" لو تيقنت من وجود كنز ضخم من الذهب أسفل هذا البيت، ماذا ستفعل؟!

ضيق "جيف" عينيه برهة، ثم انسحب إلى عمق تفكيره، وهمس بصوتٍ هادئٍ:

- بكل تأكيد سأطلعك بالأمر.
- وماذا بعد؟
- وإن لم تصدق، سأبرهن لك على وجوده.
- وماذا بعد؟

حاول "جيف" بلوغ مأربه، لكن بلا جدوى، فهم بمسايرته حتى يصل إلى منتهى فكره، فأجابه وهو يداهنه:

- حتمًا سأحاول على محمل الجد إقناعك باستخراجه.
- وإن رفضت؟

شعر "جيف" بالارتباك وفقدان القدرة على التعبير، فكف عن مسايرته، واكتفى بابتسامة باهتة دون أي رد، فأجابه "ويليام" قائلًا:

- بالطبع ستحاول بشتى السبل إقناعي، وإن لم تستطع، ستفكر جديًا في التخلص مني والحصول على هذا الكنز.

أمتعض "جيف" من ردة فعله، قائلًا:

- بالطبع لا.

وقف "ويليام" فجأة، ثم انطلق يجوب الحجرة بخطواتٍ عسكرية، تُقرع الأرض بثقةٍ لا تُلين، ثم صاح بصوتٍ قويٍ:

- بل هي حقيقة النفس البشرية ونواميسها المجبولة على الخير والشر، فالنفس تحب المال وتبحث عنه في مسالك الحلال والحرام على حد سواء، وتذكر جيدًا يا "جيف"، لا شيء يهزم طمع النفس غير كؤوس المنية.

تغشّت صفحة وجه "ويليام" كأنها سحابة من حزنٍ، وخفت بريقه كأنه ينطفئ، وارتجف صوته يجلجل:

- فما بالك برجل جمع في سويداء قلبه كل مفاسد الحياة من ظلم وطمع وجشع، وزد على ذلك موت الضمير.

التفت "جيف" ببصره نحو النافذة، مُحملًا بفضولٍ غامض، تاركًا أذنيه تسترقان كلمات "ويليام" المتسارعة، كشلالٍ من الأفكار المتشابكة، ازدادت حيرته مع كل كلمة، واستدعى كل تركيزه، فجأة، قاطعه وسأله:

- مهلًا يا "ويليام"، وأصدقني القول، لماذا تحاورني وتجادلني بهذه الطريقة؟

ذهل "ويليام" من ردَّة فعله، وصاح متعجبًا:

- عن أي طريقة تتحدث؟

هدر "جيف" بصوت عالٍ في وجهه:

- تارة تحدثني عن طمع النفس، وتارة تمتحن ذكائي، وتارة تجرني بعيدًا إلى أقصى درجات الفطنة، قاصدًا تشتيت ذهني، وأخذي إلى ويلات الحيرة، لذا تلطف بي، ولا تردديني في وهدة الجهل.

تنهد "ويليام"، وترفق بحاله قائلًا:

- أنا محارب، ولا مفر من اعتيادك اتباع منهجي الفكري، فأنا لا أجيد غير فن المناورة بما أمتلكه من أسلحة، ولا أرتضي لنفسي سوى رفع رايات نصري مهما كلفتني المعركة من تضحيات، لذا امتثل للأمر وأجب عن استفساري السالف فحسب.

أدرك "جيف" الحقيقة، وتيقن أنه يواجه عقلية محارب، ارتسمت على وجهه علامات الاستسلام، ورضخ قائلًا:

- إن ضاجعت شرور الدنيا إنسانًا بائر القلب والخلق أنجبت شيطانًا خناسًا.

هزّ "ويليام" رأسه وافترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، ولملم شتات ذاته، ثم همس بصوتٍ حزينٍ:

- كان "ليوبولد الثاني" ملك (بلجيكا)، إنسانًا بلا قلب، يمتلك من القسوة والبطش كل أرجاسها، ويحلم بالثراء والسلطة والجاه، ولا يتورع في اقتراف الموبقات من أجل تحقيق أطماعه، ولأنه فطن ولَّى بوصلة طمعه إلى خيرات وثروات وكنوز (أفريقيا)، فجمع علماء "أوروبا" وجهز بعثة استكشافية على حسابه الخاص، وأرسلها إلى وسط (أفريقيا).

وبعد أن انتهت بعثته من عملها عادت إليه وهي تحمل في جعبتها مقومات تحقيق أحلامه، وكشفت لفؤاده السقيم بالجشع والطمع ثروات حوض نهر "الكونغو" من عاج ومطاط وغيرها من الثروات، فهم بنهبها والسطو عليها، على اعتبارها ثروات بلا صاحب، لأن شعوب هذه المنطقة مجرد عبيد، ولا ترتقي إلى الجنس البشري طبقًا لفرضية "سبيك".

تأفف "ويليام"، وتمتم بصوتٍ قاتم:

- احتَلّ "ليوبولد الثاني" وسط (أفريقيا)، وأنشأ مستعمرته الخاصة "الكونغو البلجيكية"، واستعبد شعبها وسخره لملء خزائنه، قتل أكثر من عشرة ملايين نسمة، دون أن يُحرّك هذا الجرم ساكنًا من ضمير العالم النائم على وسائد الخنوع.

نشج "ويليام"، وصاح بصوتٍ متعجرفٍ ساخرٍ:

- أثار ما أقدم عليه "ليوبولد الثاني" غضب وحفيظة القوى الاستعمارية الكبرى، فأرسلت هي الأخرى قواتها العسكرية إلى منطقة حوض نهر "الكونغو" وتحرشت بالقوات "البلجيكية"، وكاد الأمر ينقلب إلى صراع عسكري دامٍ، إلا أن دهاء المستشار الألماني "أتو فون بسمارك" ومساعيه الحثيثة في إيجاد موضع قدم لبلاده في جسد الفريسة، جعله يقترح على سفير (فرنسا) في (برلين) "ألفونس شودرون دي كورسيل" إقامة مؤتمر دولي لتقسيم (أفريقيا) دون صراع عسكري.. استحسنت القوى الاستعمارية الفكرة وشرعت في تنفيذها.

اسودّ وجه "جيف"، وهدر بسخرية لاذعة:

- مؤتمر دولي على مرأى ومسمع من العالم من أجل استعمار الدول ونهب ثرواتها واستعباد شعوبها.
- على رسلك يا صديقي، حتى تتجلَّى لك معالم الصورة كاملة.
- بل قل، حتى تتضح أركان الجريمة.

صمت "ويليام" برهة من شدة ضيقه، ثم همس بصوتٍ مخنوقٍ يعلوه نبرة حزن:

- اختلفت القوى الاستعمارية الكبرى على تقسيم جسد الفريسة، فظل "مؤتمر برلين" منعقد لأكثر من مئة يوم، حتى توافقت قوى الشر فيما بينهما.

ابتسم "ويليام" ابتسامة ساخرة، وغمغم قائلًا:

- ومن المبكيات المضحكات في هذا المؤتمر اللعين توصياته النبيلة، التي تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها الظلم والقهر والاستعلاء، فما أعظم أن يكافح هذا المؤتمر تجارة السلاح والكحول، والتخلص من ويلات الرق في (أفريقيا)، والعمل على تعميرها، والحفاظ على أجناسها البدائية من الانقراض.

انتفض "جيف" من مكانه، وانفجر في نوبة ضحك هستيرية وهو يصيح:

- أسطورة "جون هاننج سبيك" تشق طريقها في عموم (أفريقيا).

خمدت أنفاسه اللاهثة من الضحك، ثم أردف بنبرة تهكمية:

- شعوب (أفريقيا) شعوب متأخرة عن ركب الحضارة، وتفتقد القوامة الإنسانية، وتحتاج إلى جنس أرقى منها ليقودها إلى تشيد حضارة

الهلاك وبناء لحود المجد، على يد الجنس الأوربي السامي، صاحب أفضل إنجاز غير إنساني على مر العصور.

نظر "ويليام" بعينيه الحزينتين، إلى الأرض في أسف، ثم همس بصوتٍ مبحوحٍ:

- تكالبت قوى الاستعمار على جسد القارة السمراء، ونهشتها بمخالبها شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وأجبرتها على التقسم والتسليم لمغتصبيها دون مقامة.

تلعثم "ويليام"، كأنّه ينطق من نار:

- في هذه الأثناء كانت (رواندا) تعج بالانقسامات والصراعات الداخلية، وقد نشب خلاف حاد بين مجلس الحكم وبين "الموامي روتاريندو"، ومع مرور الوقت أزداد الوضع سوءًا، وتسارعت وتيرة الأحداث، فانقلب مجلس الحكم على "الموامي" واغتالوه هو وأسرته، تولى "الموامي "يوهي الخامس" مقاليد حكم البلاد وسط كل هذه الصراعات والانقسامات، فخشي على نفسه من مصير سابقه فتقرب من "الألمان" وعهد لهم بحمايته وحماية ملكه.

تلاعبت أصابع "ويليام" بقدح الشاي الفارغ أمامه، ونظر إليه بنظراته التائهة التي تبحث عن السكينة، ثم نظر إلى "جيف"، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة زائفه، وهمس بصوتٍ متعبٍ:

- أصبحت (رواندا) مستعمرةً ألمانيةً، ومنذ أن وطئت أقدام "الألمان" أرض الألف تلة، وجدوا مجتمعًا زراعيًا رعويًا مستقرًا، غالبيته من الطبقة "الهوتية" الكادحة، وتحكمه طبقةٌ أرستقراطيةٌ "توتسية". ورغم مكوث الألمان أكثر من ثلاثة عقودٍ في ربوع (رواندا)، إلا أنهم لم يعبثوا بالبنية التحتية للمجتمع "الرواندي"،

لكنهم أنشأوا نظامًا سياسيًا ثنائيَّ السلطة يحافظ على مصالحهم، من خلال الإبقاء على الأقلية "التوتسية" في سدة الحكم، وتدعيمها بكافة الامتيازات والصلاحيات، من أجل تكريس وفرض سيطرتهم على الطبقة "الهوتية" الكادحة. بمعنى أدق، جعل "الألمان" الطبقة "التوتسية" الحاكمة أداةً في أيديهم لجمع الضرائب العينية والنقدية من الشعب.

ومع مرور الوقت، انحرف المجتمع "الرواندي" بعض الشيء، وتغير من مجتمعٍ زراعيٍّ رعويٍّ إلى مجتمعٍ أشبه بالمجتمعات الإقطاعية.

تنهَّد "ويليام" من أعماقه، واستنشق شذرات النسيم المعبَّقة برحيق الياسمين، حتى امتلأت أجنانه المثقلة بوخز الضمير. زاغت نظراته تتأمل أغصان الورد المعلقة بـ"درابزين" (الفرندا). استغرق في تأملها، وأغمض عينيه المكحلتين بالتعب. ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ هادئة، وتمتم بصوتٍ خفيضٍ محاولًا تخفيف لهجته العسكرية وكسر حدة الجدل المحتدم بينه وبين "جيف" الباحث عن الحقيقة وعن مهد معاناة بلاد الألف تلة. أشار إليه، ثم أردف حديثه بصوتٍ هادئٍ:

- باتت (رواندا) مستعمرةً ألمانيةً، لكن الأجواء العالمية كانت تنذر بنشوب حربٍ شعواء. وبالفعل، اندلعت الحرب العالمية الأولى على إثر اغتيال الأرشيدوق النمساوي "فرانز فرديناند". وبعد مضي أربع سنواتٍ من القتل والدمار، وضعت الحرب أوزارها بانتصار دول الحلفاء، وهزيمة دول المركز، ومقتل أكثر من عشرين مليون شخصٍ، ودمار معظم مدن "أوروبا" الكبرى. سعت

الدول الاستعمارية إلى تعويض خسائرها من خلال استنزاف ثروات مستعمراتها في القارة السمراء.

اقتحمت "بيرت" حديثهما بابتسامتها المشرقة وهي تنادي:

- "ويليام" العشاء جاهز.

تمغط "ويليام" بجسده، ثم مضى إلى "جيف"، وجذبه من ذراعه عنوة، ورافقه إلى مائدة الطعام، ثم أجلسه على مقعده، وبعد أن شرعوا في تناول الطعام، هم "ويليام" بإفشاء أسرار مغامراته المثيرة مع "جيف" قائلًا:

- أتتذكر يا "جيف" ما حدث مع المس "مارجريت" مدرسة التاريخ؟

رمقه "جيف" بنظراته الحادّة، وزجره ليكفّ عن سخافته. انصرف "ويليام" عن هذا الحديث، وبدأ يعدد بطولاته وإنجازاته، وتصديه للمفسدين والانتهازيين، وكيف أصبح من كبار رجال القانون في (فرنسا). ابتسمت "بيرت"، وكأنها صادفت بطلها الأسطوري، ثم صاحت بلهفةٍ وتساءلت بروحها المرحة:

- ماذا حدث مع المس "مارجريت"، يا "جيف"؟!

ابتسم "ويليام" ابتسامةً خفيفة، ثم انفجر ضاحكًا بصوتٍ عالٍ حتى دمعت عيناه، لم يستطع السيطرة على نفسه. وسرعان ما انتقلت عدوى الضحك إلى "جيف"، ولم يستطع هو الآخر السيطرة على نفسه. تعجّبت "بيرت" من أمرهما، وصاحت في "ويليام" بصوتٍ حائرٍ:

- أخبرني أنت يا "ويليام" بسرّ المس "مارجريت"، مدرسة التاريخ.

استغرق "ويليام" في نوبة ضحكٍ، ثم همس بصوتٍ خفيضٍ:

- في أحد أيام الصف السادس، اتفقت أنا و"جيف" على تناول البيتزا قبل الذهاب إلى المدرسة. فذهبنا إلى المطعم وأكلنا حتى شبعنا، ثم هرعنا إلى المدرسة ودخلنا الفصل قبل دخول المس "مارجريت".

انفطر "ويليام" من الضحك وهو يسرد بقية القصة:

- أثناء مرور المس "مارجريت" في طرقات الفصل وهي تشرح درس أسباب انحدار الحضارة الرومانية، شعر "جيف" بألمٍ شديدٍ في أمعائه، وإذ به فجأة يطلق من مؤخرته أصواتًا غريبة تشبه قعقعة الرعد. التفت التلاميذ إلى المس "مارجريت"، وكأنها هي من أصدرت تلك القعقعات.

انفطرت "بيرت" من الضحك، لكنها شعرت بتحرج "جيف"، انصرفت عن هذا الحديث وهي تحدق فيه بنظراتها البريئة، ثم همست قائلةً:

- أنت بصدق ملهم، وأنا مفتونةٌ بكَ وبفكرك وبإنسانيتك، يا "جيف".

ابتسم "جيف" وحمرة الخجل تحجب سحنته، قائلًا:

- أنت تبالغين في شأني يا "بيرت".

نظر "جيف" إلى "ويليام" وصاح فيه بصوتٍ غليظ:

- لماذا لم تخبرني عن "بيرت" من قبل؟!

صرخ "ويليام" فيه بغضبٍ:

- وهل أمهلتني الفرصة من قبل؟!

امتعض "جيف" قائلًا:

- طوتنا الأيام في محرابها يا "ويليام"، حتى شاب العمر.

تعالت دقات قلب "ويليام" وفاضت تصدح بحبها، وهمس يتغزّل في جمالها، قائلًا:

- "بيرت" هي نبض حياتي، وربيع خريفي، واليد الحانية التي تداوي جروحي وتطبطب على أوجاعي وقت هواني على نفسي، ولن أنسى نظرتها الأولى، حينما التقينا لأول مرة في أحلك ساعات عمري، وهي واقفة تحضن دموعها، وجسدها يرتجف وسط أكوامٍ من جثث الأطفال الأبرياء في إحدى ضواحي (كيجالي) أثناء عملية "التركواز".

صمت "ويليام" وهو يمعن النظر في قسماتها الجميلة، ثم همس بصوتٍ مخضبٍ بالوجل:

- وبينما كنت أهرع لمساعدة الفارين من المجازر، إذ بي أراها تركض نحوي وترتمي بين ذراعي، فاقدةً الوعي. حملتها مسرعًا إلى سيارتي، وهرعت بها إلى مقر إقامتي، ثم وضعتها على مخدعي وأسعفتها بكل جوارحي، ظللت بجوارها حتى أفاقت من غفوتها وهي تئن وتصرخ وترتجف من هول ما رأته. حاولت تهدئتها، لكنها انخرطت في بكاءٍ شديد، وظلت تصرخ وتئن وترتجف. دنوت منها وسجنتها بين ترائب صدري. اهتز كياني وسرى حبها في فؤادي من الوهلة الأولى. ومنذ تلك اللحظة لم أفارقها قط، ولن أفارقها أبد الدهر.

انتفض "جيف" من مكانه، وضرب طاولة الطعام بيديه، وهو يصرخ ويهذي بكلماتٍ غير مفهومة، وكأنه فقد صوابه:

- "بيرت" كانت هناك، وقت المذابح والقتل!!.. "بيرت" كانت في (رواندا)!!

أجابه "ويليام" بصوتٍ هادئ:

- وما الغريب في وجودها كصحفيةٍ تغطي أحداث الصراع في شرق (أفريقيا) لصالح جريدة "لوموند"؟!

هاج "جيف" وماج، وأخذ يطوف حول مائدة الطعام كالممسوس وهو ما زال يصرخ ويصيح:

- "بيرت" رأت المذابح والقتل رأي العين، وما زلتَ تبتسم؟!

أجابته "بيرت" بكل ثقة:

- نعم، ما زلتُ أبتسم؛ لأنني انتصرتُ على أحزاني.
- الأحزانُ تُحني هامات الجبال، يا "بيرت"، فكيف انتصرتِ عليها؟

وقفت في وجهه كالصخرة العاتية التي تُلاطمُ حدثانَ الدهر، وأجابته بتحدٍ:

- نعم، لقد تكبَّدتُ الكثير والكثير من الأوجاع، وتعرَّضتُ لتجارب قاسية، عانيتُ فيها آلامًا جسدية ونفسية لا حصرَ لها، حتى وجدتُ نفسي حبيسةً في دائرة مغلقة من التشويش النفسي، لكنني في النهاية تغلَّبتُ على محنتي، ولم أتركها تهزمني أو تُصفع عزيمتي، بل على العكس، زادتني قوةً وإصرارًا، لذلك قرَّرتُ مدَّ يدِ العونِ إلى مَن فقدوا عوائلهم جرَّاء القتل والذبح، وتبنَّيتُ ثلاثة أطفال ممن فقدوا ذويهم، وجلبتُهم إلى هنا وأوليتهم رعايتي، وتعهدتُ بتربيتهم وتعليمهم.

همس "جيف" بصوتٍ يشرئبُّ بالإجلال والتقدير:

- أأنتِ فعلتِ ذلك يا "بيرت"؟!

تردد صوتُ نبراته المنكسرة في صدره، تنهدتْ "بيرت"، ونظرت إليه بامتعاض، ثم صاحت معلنةً تحدِّيها للواقع المرير:

- انكسارُ النفس هو فقدانُ القدرة على تجاوز عثراتِ الماضي، وجني ثمارِ الواقع المر، وخيانةُ أزاهير المستقبل، ووأدُ أحلامِ الروحِ في أعماق النفس المعذبة. نعم، جلبتُ هؤلاء الأطفال الأبرياء إلى هنا، وعزمت بكل جديةٍ أن ينالوا أرفع الشهادات وأعظمها من أرقى الجامعات "الفرنسية"، حتى يرى قادة بلادي كيف أقدموا على قتل أحلام الأطفال البريئة دون ذنبٍ أو جريرة. فقادة بلادي كان بإمكانهم إخماد أجيجِ نيران الحقد المستعرة في (رواندا)، لكنهم في حقيقة الأمر أضرموها وتركوا النارَ تأكلُ الأخضرَ واليابسَ. أما أطفالي وقُرَّة عيني، باتوا ضمير الحق الذي يطارد كل أفَّاكٍ أثيم.

صرخ "جيف" وصرخاته تمزق سدولَ الصمت بصوتٍ باكٍ:

- تبًّا لساسة بلادي، الذين زرعوا الموت والخراب في دروب الأبرياء، تاركين وراءهم قلوبًا محطمة وجراحًا غائرة وآلامًا لا تندمل.. تبًّا لقلوبهم العمياء التي لا تبصر بسماتَ النور في أحداق الأرامل.. تبًّا لكل ناسكٍ يتورَّع بالزهد، ويضمر في قلبه سمومَ الحقد والكراهية لبني الإنسان.

ترجَّته "بيرت" بدموعها الرقراقة، واستحلفته كبح فيض مشاعرها المتلاطمة، لكنه فتق جروحَ الماضي. انتفض "ويليام" من مكانه وهمَّ بإسكاته، أومأت "بيرت" إليه بالهدوء، ثم همست بصوتها الشجي الباكي:

- لا تُقيِّد حريتَه يا "ويليام"، واجعل عنانَ فكره يعانق أوجاعنا لعله يجد ما يصبو إليه.

أغمض "جيف" عينيه المثقلتين بأوزار الماضي، وهام يفكر مرارًا وتكرارًا عن سبب صمت "بيرت" عن تلك الجرائم دون فضحها، صاح مستجليًا الحقيقة:

- كان من الأحرى بكِ فضحُ ما جرى في (رواندا) يا "بيرت"!

تنهدتْ وأجابته برصانةٍ وهدوء:

- لقد عانيتُ الكثيرَ أثناء تغطية الأحداث في (رواندا)، وتحمَّلتُ على عاتقي عبئًا ثقيلًا. كنتُ عينًا ترصدُ أحداثًا عاصفةً، وقلمًا يخطُّ حكاياتٍ من قلبِ المعاركِ. ورأيتُ بأمِّ عيني كمَّ الانتهاكات بحقِّ الأبرياء، حينها أدركتُ أن المعركةَ الدائرةَ معركةٌ بين القوى الاستعمارية بأيدٍ رواندية، وأنَّ كلَّ كلمةٍ تخرجُ من فمي أو تخطُّها يدي قد تؤدي إلى إشعال نار القتل والذبح أكثر، فكنتُ حريصةً على عدم الإفصاح عن الأسرار العسكرية حتى لا يتلقَّفها هذا أو ذاك.

امتعض "جيف" ثم صاح في وجهها:

- ليس مبررًا يا "بيرت"!

تهكمت "بيرت" من سجيته وفطرته البتول، ثم أجابته بحزم قائلة:

- أنت لا تعلم ما معنى أن تكون صحفيًا ومراسلًا حربيًا ومطلعًا على كافة أسرار سياسة بلادك الخارجية دون غيرك. هذا يعني تُكمَّيم فمك، وتُقيد حريتك، فلا يُسمع لكَ صوت إلا بإذن من صانعي

القرار، وتُملى عليك التصريحات وتُصاغ كما يرون هم، فأنت مجرد بوق يُردد ما يُريدون إيصاله إلى العامة.

تأوهت "بيرت" من أعماقها، وابتسمت ابتسامة ساخرة، وصاحت بصوتٍ مكبلٍ بالوجع والضيق:

- "جيف"، أجبني، ماذا يحدث لو ثار صحفي على هذا القيد وتخطّى حدود الرقابة وصرخ بالحقيقة؟

تلحف "جيف" بالصمت، صاحت في وجهه بصوتٍ زاعق:

- أعلم جيدًا، يا "جيف"، لو خرج صحفي عن حدود السياسة المرسومة له وتجاوز الخطوط الحمراء، قد يعرّضه هذا لعواقب وخيمة. فقد يُنكَّل به أو يُعزل من منصبه، أو يُواجه مصيرًا أشد قسوة، قد يصل إلى القتل والتخلص منه.

اختلج "جيف" في مكانه، وارتسم على وجهه مزيج من الغضب وعدم الإقرار بحديثها، صرخ بصوتٍ عالٍ يعكس دهشته من كلام "بيرت":

- أيحدث هذا في بلادي، بلاد الحرية؟!

صمت "جيف" برهة، ثم هرول إلى "بيرت"، وجثا على ركبتيه، وسألها بلهفةٍ تجاوزت حدود الشغف ذاته:

- وماذا عن أطفالك يا "بيرت"؟ أين هم الآن؟!

تنهدت، وابتسمت ابتسامة رقيقة، وهمست قائلة:

- هم هنا في أعماق قلبي، يتربعون على عرش مشاعري.. هم ربيعُ عمري وأحلامي الجميلة.. "هيلين" الفاتنة بروحها المشرقة،

و"يوجين" طيّب القلب، و"فوستن" المُفعَم بالحياة. هم سعادتي الحقيقية.

- إذن متى ألقاهم؟
- حتمًا ستراهم عمّا قريب، لكني أستحلفك بكل عزيز وغالٍ تناول طعامك أولًا، وبعدها سنتحدَّث ونتفق.

تناول "جيف" الطعام، وهو شارد الفكر، مشغول البال، وقد بدت لخوالجه تكشف خيوط الحقيقة، تساءل بصوتٍ خفيضٍ مسموع:

- وماذا عن دور بلادي يا "بيرت"؟
- هون على نفسك يا "جيف"، ودع هذه إلى حينه، ودع "ويليام" ينجز ما بدأه أولًا.

انتهوا جميعًا من تناول الطعام، وتهادى "جيف" و"ويليام" إلى حجرة الأنتريه بخطواتٍ مثقلة بضربات القدر الموجعة. جلس "جيف" على مقعده، وظلَّ "ويليام" واقفًا وسط الغرفة. وبعد برهة من الصمت، تساءل "ويليام" بصوتٍ حائر:

- إلى أين أخذتك هواجسك يا "جيف"؟

افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، وأجابه بصوتٍ مهزومٍ:

- إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.
- إذن دعنا ننهي ما بدأناه.

أغمض "ويليام" عينيه ولاك بذاكرته، ثم أردف قائلًا:

- مكث "الألمان" أكثر من ثلاثة عقود في (رواندا)، ورغم ذلك تركوا المجتمع "الرواندي" على لحمته وتماسكه، ولم يشرعوا في تمزيقه

أو تكريس الانقسام بين قبائله، لكن أضحى جليًا وجود طبقتين متباينتين، طبقة "توتسية" تملك كل مقدرات الدولة من ثروات ونفوذ، وطبقة "هوتية" لا تملك من حطام الدنيا شيئًا، ومحرومة من أبسط حقوقها.. وبعد توقيع معاهدة "فرساي"، آلت (رواندا) إلى "البلجيك"، ولأن الأمة "البلجيكية" أمة ممزقه عانت من ويلات الحرب والاستعمار والانقسام القبلي، ومن هيمنة الأقلية "الوالونية" على الأغلبية "الفلمنكية"، ولأنهم يدركون جيدًا خطورة تقسيم المجتمعات إلى فصائل متناحرة، سعوا منذ أن وطئت أقدامهم أرض الألف تلة إلى تقسيم المجتمع "الرواندي" إلى عرقين متناحرين ومتحاربين من أجل إضعافه وتشرذمه، ومن ثَمَّ السيطرة عليه.

همس "جيف" بصوتٍ باهتٍ:

- فرق تسد.

هزّ "ويليام" رأسه موافقًا على كلامه، وأضاف قائلًا:

- نعم، "فرِّق تَسُد". فإذا أردت السيطرة على أمة من الأمم، فَرِّق بين أبنائها، ثم اغوِ فصيلًا واجعله طوع يديك، وأعطه السلطة والمال، وبين الحين والحين انقلب عليه، واجعله يمتري ويتوهم دومًا عدم رضاك عنه. عندئذٍ سيقدّم لك كل التضحيات والتنازلات من أجل إرضائك، حتى تبقيه في السلطة. من هنا، اتبع "البلجيك" سياسة التفرقة بين "الهوتو" و"التوتسي" والتلاعب بوعيهم الجمعي من خلال مزج الحقائق بالأكاذيب، ودس سموم الفرقة بين الأخ وأخيه. فتارة يشاركون "التوتسي" أوهام حامية "هان سبيك" المكذوبة وحقهم الأبدي في حكم البلاد، وتارة يدغدغون مشاعر "الهوتو"

ويتلاعبون بعواطفهم، ويحثونهم على المطالبة بحقوقهم المسلوبة والتحرر من سطوة "التوتسي" المحتل الحقيقي للبلاد. ومع مرور الوقت، نجح "البلجيك" في تكريس الحقد والكراهية في المجتمع "الرواندي"، وإغراقه في براثن الطائفية.

شحذ "ويليام" ببصره إلى "جيف"، وأردف حديثه بتركيز حادٍّ:

- أقدم "البلجيك" على إعادة هندسة المجتمع "الرواندي" على أسس عرقية، وللأسف باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه الخطوة.

فقد "جيف" صوابه، وهبّ واقفًا وصرخ في وجهه بغضب:

- الكنيسة باركت هذا التصرف المشين؟
- نعم، بل وأكَّدت أكذوبة "سبيك" الملفقة، من أجل نشر مذهبها الكاثوليكي في كافة ربوع (أفريقيا).

صرخ "جيف" من أعماقه يستجدي إسكات ضميره الثائر:

- أأنت متيقن من أن الكنيسة روجت أكاذيب "سبيك"، التي فتحت أبواب الخراب على مصاريعها؟
- نعم، وللأسف بعد انتهاء الإبادة اعتذرت الكنيسة عن تدخلها في هذا الصراع الدامي.

وقف "جيف" وفرد ذراعيه في الهواء، كأنه يحيي جمهور مسرحيته، ويلقي عليهم جم معاناته صائحًا:

- أقتل.. ذبح.. اغتصب، وما عليك سوى الاعتذار لمجرد الاعتذار، اعتذر وستمحى كل أوزارك.
- دعنا من هذا الهراء، ودعنا نرى ما هو أخطر من ذلك.

- تدخُّل الدين في تأجيج النعرات الطائفية هراء؟!

ضحك "ويليام" بسخريته، ثم أجابه قائلًا:

- إنها البداية.
- إذن أكمل، وأكمل هدم كل قناعاتي.

تنهد "ويليام"، ثم أردف قائلًا:

- عبث "البلجيك" بقوام المجتمع "الرواندي"، وسعوا إلى تخريبه وتفكيك أنظمة حكمه الداخلية، ففرضوا حكمًا سلطويًا نخبويًا "توتسي" متعسفًا. لكن أخطر ما أقدم عليه "البلجيك" هو قيامهم بتوثيق الفوارق الجسدية بين "الهوتو" و"التوتسي". حينئذٍ استدعوا لجنة من علماء التشريح والإحصاء من "بروكسيل". وللأسف، أظهرت نتائج هذه اللجنة بعض الفوارق الجسدية الطفيفة بين "الهوتو" و"التوتسي"، فوصفت "الرواندي الهوتي" بقصر القامة وامتلاء الجسد واستدارة الوجه ودكانة بشرته السمراء، وغلظ شفتيه وتسطح أنفه، بينما وصفت "الرواندي التوتسي" بطول القامة ونحافة الجسد واستطالة الوجه واستشراق بشرته السمراء، وضيق أنفه ومثنية شفتيه. استغل "البلجيك" هذه الفوارق الجسدية لهدم الهوية الجمعية "الرواندية"، فأصدروا بطاقات هوية عنصرية مدون فيها هوية الفرد، سواء أكان "هوتي" أو "توتسي" أو حتى "تو".

غصّ "ويليام" بريقه، ثم أردف قائلًا:

- تحطمت الهوية الوطنية الجماعية "الرواندية" على تعلة السياسة الاستعمارية البغيضة، وحلت محلها النعرة الطائفية. وعاث

"البلجيك" فسادًا، وفرضوا الضرائب التعجيزية، وسلبوا أراضي "الهوتو" لصالح "التوتسي"، وادخلوا محاصيل زراعية جديدة كالقهوة و"الكاسافا الإيرلندية"، وفرضوا زراعتها بالسخرة. ومع مرور الوقت وتتابع الأحداث، وتغير المعطيات العالمية، ومع تنامي الأصوات التوتسية المطالبة بالاستقلال وتقرير المصير، انقلب "البلجيك" على "التوتسي" ونزعوا من حولهم قضبان قوتهم وسطوتهم، وتخلوا عن حمايتهم، وصلبوهم على مقصلة "الهوتو" لمجرد مطالبتهم بحقوقهم المشروعة.

صاح "جيف" في وجهه:

- وما الجديد في سنن الطغاة، يا صديقي؟!

صمت "ويليام" برهة يلتقط أنفاسه، ثم همس بوتيرة روتينية كأنه يأس وفقد الأمل فيما هو قادم:

- بدأ "البلجيك" اضطهاد وعزل "التوتسي" من وظائفهم العليا ومن الوظائف الحكومية ومن المؤسسات التعليمية، وتعيين "الهوتو" بدلًا منهم. وشيئًا فشيئًا شجع "البلجيك" النخبة "الهوتية" الناشئة على المطالبة بالسلطة بدلًا من الأقلية "التوتسية"، أعمالًا بقانون الإحصاء. حينها تدخل "الموامي" "موتارا الثالث" لاحتواء غضب "الهوتو"، فقام ببعض الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، ألغى نظام السخرة، وأعاد توزيع أراضي "التوتسي" على "الهوتو". لكن النخبة "الهوتية" الناشئة رفضت تلك الإصلاحات، وزادت من وتيرة الفوضى وأعمال العنف. فاضطر "الموامي موتارا الثالث" إلى اتخاذ العديد من الإصلاحات التي من شأنها تخفيف حدة الاضطرابات والفوضى، لكنه توفي فجأة في ظروف غامضة.

٨

زردت أمرار الحقيقة أجنان "ويليام"، فتألَّم ندمًا على ما اقترفته يداه من جرائم في حق الأبرياء، بعدما تيقَّن أن سلاطين مدائن النور في بلاده قد خدعوه واستغلُّوه هو وأمثاله في نهب ثروات الأمم، ووأد حياة الأبرياء في لحود أطماعهم. تجهمت سحنته واعتلَّتها علامات الحيرة والتردد، همس بصوتٍ خافتٍ يرتعش منه الحزن:

- يزداد يقيني يومًا بعد يوم أنني امتطيت أمواج الخسران، وتجرعت من كؤوس الدماء المسفوحة في (رواندا).

همس "جيف" بصوتٍ خفيضٍ، يربت على حزنه العميق بلطف، كأنَّه يلامس سويداء قلبه، قائلًا:

- نواجه وساوس الإثم بالإثم، ونسلك دروب الانحراف بقلبٍ قاسٍ، وبعد أن ينزف الضمير ويهوي، نعود إلى الحق تائبين.

تأوه "ويليام"، وتلاطمت مشاعره، اهتزَّ جسده كأنه ورقة في مهب الريح، ثم همس بصوتٍ مخنوقٍ:

- نوبة صحوة الضمير مؤلمة ومرهقة، لكنها، رغم قسوتها، كاشفة لعورات النفس البشرية، وكأنها حريق شبَّ في ثوب مطرز بالماس؛ فني الثوب وبقي الماس على حاله في الثرى، لذا دعنا نمضي من دروب الوجع الذاتي إلى دروب القهر وانعدام الضمير في (رواندا).

أطبق "ويليام" عينيه المتثاقلتين بالهموم، ثم أردف قائلًا:

- تخلى "البلجيك" عن دعم النخبة "التوتسية" الحاكمة وتركوها في مهب الريح تجابه سهام الحقد والكراهية "الهوتية". في الوقت ذاته، تخلَّت دول المحور عن خنوعها لشروط معاهدة "فرساي" المجحفة، وتحيَّنت الفرصة للانتقام من دول الحلفاء. وللأسف، اندلعت الحرب العالمية الثانية، وظلَّت نيرانها مشتعلة لأكثر من خمسة أعوام، حتى انتهت بهزيمة دول المحور من جديد، تاركةً وراءها دمارًا هائلًا. حينئذٍ، فرض المنتصرون سياسة الأمر الواقع، أنشأوا منظمة الأمم المتحدة بدلًا من عصبة الأمم، ووضعوا قواعد وأسس مجلس الأمن وسيطروا عليه، ثم أسسوا محكمة العدل الدولية لمحاكمة من يرغبون في محاكمته. في هذه الأثناء، سبغت متغيرات الحياة السياسية في مختلف أوطان المعمورة، فارتفعت أصوات الشعوب المحتلة للمطالبة بالاستقلال.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ترافقت سنوات التحرر الوطني في (رواندا) بولادة نخبة "هوتية" مثقفة، استفادت من الأوضاع العالمية، ومن انقلاب "البلجيك" على "التوتسي"، وتجريدهم من كل نفوذهم وتقليص دورهم الفعال في المجتمع. حينها طالبت النخبة "الهوتية" الوليدة "البلجيك" بإلغاء قانون "مورتهان" الذي يمنح "التوتسي" السلطة المطلقة والأبدية في (رواندا).

ابتسم "جيف" بتهكم، وهمس بلهجة حادة:

- تخلى "البلجيك" عن "التوتسي"؟!

- نعم، إلا أنهم تركوا لهم بعض المناصب المهمة في المؤسسات الحكومية، بقصد ضمان ديمومة المواجهات بين طرفي الصراع،

والعمل على اتساع رقعته، ليشمل كافة أفراد "التوتسي"، وليس الطبقة الحاكمة فحسب. مع مرور الوقت، اشتد عود النخبة "الهوتية" الوليدة، وأصدرت بيانًا باسم "باهوتو"، طالبت فيه بحكم البلاد، وإنهاء سلطة "التوتسي" وطردهم منها، معتبرةً إياهم غزاة ومحتلين. في ظل هذه الأجواء المشحونة بالصراعات القبلية، سمح "البلجيك" بتأسيس أحزاب سياسية عرقية، مما زاد من حدة الانقسام الداخلي، ظهر حزب "بارمهوتو" "الهوتي" اليميني المتطرف، وحزب "أونار" "التوتسي"، وسرعان ما بدأت حملات انتخابية شرسة بين الأكثرية "الهوتية" والأقلية "التوتسية".

أثارت نبرات صوت "ويليام" الواهنة انتباه "جيف"، وأحدثت بداخله نوعًا من الفوضى، فظل شاخص البصر إليه، يلتقط كل كلمة ويفسرها، لكنه همس في بؤس، كأنَّه ينشد ترنيمة الظلم والجور:

- بل قل إن المستعمر سعى من دافع شروره إلى هدم البيت "الرواندي" ليُشَيِّد من حطامه نخبةً خاضعةً لسيطرته.

تنهَّد "ويليام" ثم همس بصوتٍ خفيضٍ يملأه الأسى:

- وللأسف، قبل أن يتمكن الشعب "الرواندي" المتعطش للحرية من الوصول إلى صناديق الاقتراع، تعرض نائب رئيس حزب "بارمهوتو" "الهوتي"، "دومينيك مبونيوموتوا"، لمحاولة اغتيال على يد مجموعة من أنصار حزب "أونار" "التوتسي"، انتشرت الشائعات عن مقتله، فاستغلها "الهوتو" كذريعة لشن هجمات انتقامية واسعة النطاق على بيوت ومقرات ومكاتب "التوتسي"، فحطموها، ونهبوها، وأحرقوها، وذبحوا الرجال والنساء والأطفال.

صمت "ويليام" مذهولًا من دهاء المستعمر البلجيكي، الذي صاغ وصنع الصراع "الرواندي" ببراعة، وزينه بفخاخ الديمقراطية. وبعد أن نسج خيوط المؤامرة، وقف يتفرج على المسرحية "الرواندية" الدامية المعزوفة على أوتار الدم البريء. انقبض قلبه حزنًا وغص بمرارة، ثم همس بصوتٍ خافتٍ:

- اندلعت أعمال العنف والشغب وطالت كل جحر ضب في (رواندا)، قتل وشُرِّد أكثر من مئة وخمسين ألف "توتسي"، واستمرت انتفاضة "الرياح المدمرة، المعروفة بـ"ثورة الفلاحين"، أكثر من عامين، تاركةً ندوبًا عميقة في نسيج المجتمع "الرواندي".

غرق "ويليام" في بحر من الصمت، بينما همس "جيف" بسؤال يُحاصره ويُثير شجونه:

- وأين كان "البلجيك" من هذا الاقتتال؟!

تأوه "ويليام" ونفض عن كتفيه عباءة صمته، وقد رسمت التجاعيد جبينه، وأجابه بنبرة صوت تهكمية، قائلًا:

- لطالما اتسمت سياسة "البلجيك" بالغموض والتردد، لكنهم في هذه المرة أعلنوا وبشكل واضح وصريح دعمهم ومساندتهم "للهوتو"، نكايةً في "التوتسي". وقد عبّر عن ذلك الجنرال البلجيكي "لوجيست" بقوله: "شاهدنا بيوت "التوتسي" تحترق، لكننا فضلنا عدم التدخل أو مساعدتهم، كان لزامًا علينا الوقوف مع طرف ضد الآخر، ونحن اخترنا الوقوف مع "الهوتو" هذه المرة". للأسف، ساهم هذا الموقف الغريب بشكل كبير في تفاقم الأزمة الإنسانية في (رواندا)، وأدى إلى واحدة من أسوأ الإبادات الجماعية في التاريخ الحديث.

زمجر "جيف" بصوتٍ محبط، مُعبّرًا عن شعوره بالغضب والإحباط، قائلًا:

- ما زال الذئب الماكر يحيك خيوط الفتنة، وينفث سمومه بين أفراد القطيع الواحد، ويسعى بكل ما أوتي من خبث إلى زرع بذور الشقاق بينهم، مُتربصًا بفرصة الانقضاض على ضعيفهم، وإلقاء تهمة قتله على أخيه القوي، حتى يفرق بينهم جميعًا ويجعلهم فريسةً سهلةً، ومن ثم ينقض عليهم الواحد تلو الآخر.

تنهد "ويليام"، ثم أردف قائلًا:

- تنامت بذور الفرقة في المجتمع "الرواندي"، وامتدت جذورها وتشبعت في سفوح تلالها، رغم حصولها على الاستقلال. أصبح "جريجوار كايباندا"، زعيم حزب "بارمهوتو" اليميني المتطرف، وأحد واضعي بيان "باهوتو" العنصري، أول رئيس منتخب للجمهورية "الرواندية". كان من المتوقع أن تنعم (رواندا) بالأمن والسلام والاستقرار، إلا أن الأوضاع الاقتصادية المتردية زادت من حدة التوترات القائمة. وزادت وتيرة العنف بين حكومة "كايباندا" ولاجئي "التوتسي"، ومع مرور الوقت، أصبح "التوتسي" ما بين قتيل في لحود الموت، أو مطارد في عقر داره، أو لاجئ مشرد في دول الجوار. وبعد مرور عقد من حكمه، زادت الأوضاع الاقتصادية سوءًا، وتذمر "الهوتو" من سياسته، وشعروا بالإحباط وخيبة الأمل، وباتوا يتساءلون: ماذا جنينا من زوال سلطة أقلية "توتسية" مستبدة لتحل محلها أقلية "هوتية" مستبدة ترسخ لنفسها، وتنتج نفس المظالم التي هبّت ضدها من قبل؟!

تفاقمت أزمة الثقة بين الحكومة والشعب، وبدأ يظهر في الأفق صراع خفي على السلطة بين "هوتو الشمال" و"هوتو الجنوب".

التقط "ويليام" أنفاسه المتسارعة، وهمس بصوتٍ يملأه الإعياء قائلًا:

- وفي منتصف عام ١٩٧٢م، ارتكب "توتسي بوروندي" مذابح واسعة النطاق ضد "الهوتو"، مما دفع "الهوتو" في (رواندا) إلى الرد بحملة تطهير عرقي واسعة النطاق ضد "التوتسي" وطالبوا حكومة "كايباندا" بفرض نظام الحصص العرقية، إلا أن "كايباندا" كان منشغلًا بترسيخ وتثبيت أركان حكمه الاستبدادي، متجاهلًا معاناة شعبه. وفي تحول مفاجئ للأحداث، انقلب وزير الدفاع "جوفينال هابياريمانا" على الرئيس "كايباندا" وأطاح به، ليعلن نفسه رئيسًا جديدًا لـ(رواندا).

أنهك التعب أوصال "ويليام" المهدمة، وأخذ الليل يثقل أجفانه ويرديه في وهدة النعاس، لكنه قاوم وتحامل على نفسه، وسجن آلام جسده في غياهب الوهن، وآثر أن يفضح جرائم ساسة بلاده، والاعتراف بأوزارهم، لعله يريح ضميره من عذابات نفسه. تنهد بصوتٍ واهنٍ مرهقٍ، ثم أردف قائلًا:

- نكره الحرب، لكننا نُصقل نصال سيوفها ونزيدها سُمًّا. ونُغني مع العصافير، لكننا نُنصب لها الفخاخ. ونكره الخريف وعربدته بجمال الطبيعة، ونتلهف قدوم الربيع، لكننا نطعن قلوب الأشجار بفؤوس أحقادنا. هكذا نحن البشر: الفعل ونقيضه، نرقص على أنغام الدمار ونغوص في دماء بعضنا البعض، وبعد أن ننتهي من رقصات القتل والعهر والغدر المعزوفة على موبقات النفس

البشرية، ننادي بحقوق الإنسان، كأننا نُسوِّغ جرائمنا بشعارات براقة لا تُخفي بشاعة أفعالنا.

تنشج "ويليام" من أحشاء قلبه، ثم همس قائلًا:

- كان "جوفينال" رجلًا ماكرًا قاسي القلب، يتقن فن الخداع، ويعي تمامًا متى وأين يقلب أحجار نرد غاياته وأطماعه لتحقيق أهدافه. فمنذ توليه سدة الحكم، بدأ في ترسّخ حكمه الاستبدادي، مستغلًّا معاناة الشعب "الرواندي"، الذي عانى الأمرّين تحت وطأة النخب الحاكمة، سواء "التوتسية" أو "الهوتية". تقرب "جوفينال" من جموع الشعب "الرواندي" مُطلقًا وعودًا براقة كالسراب، ووعدهم بمستقبل أفضل. حينئذٍ دعا إلى وقف أعمال العنف ضد "التوتسي" واعتبارهم جزءًا لا يتجزأ من نسيج الوطن، مؤكدًا لهم أن زمن العنف قد ولَّى، وأن انقلابه على الظلم والطغيان ما هو إلا استكمال لثورة "الهوتو" وتصحيح مسار الأمة. لم يخِبْ "جوفينال" ظن الشعب "الرواندي"، فتوجهت أولى خطواته بإصرار نحو الإصلاح والتصدي بكل حزم للفساد الإداري المتجذر في أجهزة الدولة، إدراكًا منه بخطورته على مسيرة التنمية ومستقبل بلاده.

أخذ "ويليام" يدعك عينيه الذابلتين، هب من مكانه مسرعًا، وهرول إلى الحمام، رحض وجهه، ثم عاد وهو يتنهد ويردف قائلًا:

- تمكن "جوفينال" من كسب تأييد جزء كبير من الشعب "الرواندي"، وكسب ثقة المجتمع الدولي، انهالت عليه المساعدات الأوروبية. ورويدًا رويدًا، تمكن من السيطرة على مقاليد الحكم سياسيًا وعسكريًا، ولأنه "ميكافيلي" الهوى يتقن الكذب والمداهنة، ويستخدم المشروع وغير المشروع في إلهاء شعبه بالهموم

الحياتية، ولا يتورع عن قتل من يعاديه، أو بيع مبادئه أو التضحية بأبناء وطنه أو الارتماء في أحضان عدوه، حتى يتمكن من السيطرة عليه، ومن ثم الانقضاض عليه.

خض "ويليام" رأسه المرة تلو الأخرى، خشية السقوط في وهدة الكرى، ثم أردف بصوتٍ يغلبه النعاس:

- سرعان ما تحول "جوفينال" إلى ديكتاتور ظالم ومتغطرس، ناكثًا لوعوده، وحانثًا بعهوده، واستمر في اضطهاد "التوتسي" بلا رحمة، ورفض عودة اللاجئين إلى ديارهم بحجة شح موارد البلاد الاقتصادية.

اقترب "جيف" من "ويليام"، ومد يده نحوه ومسح على رأسه بلطف، داعيًا إياه إلى التريث واستكمال حديثيهما في وقت لاحق، تجاهله "ويليام"، وواصل حديثه بصوتٍ أجشٍ غليظٍ:

- بدأ "جوفينال" في ترسيخ حكمه الاستبدادي، فألغى جميع الأحزاب السياسية، وحصر السلطة في حزبه، حزب "الحركة الثورية القومية للتنمية"، الذي حظي بدعم لا محدود من المؤسسة العسكرية والحرس الجمهوري، بل امتد هذا الدعم ليشمل تعاونًا وثيقًا مع الفيلق العسكري "الفرنسي" المتمركز في المنطقة.

استفاق "ويليام" من نعاسه، ثم صاح بامتعاض:

- في العقد الثاني من حكم "جوفينال"، شهد الاقتصاد "الرواندي" انهيارًا مدويًا تزامنًا مع هبوط أسعار البن عالميًا، مما أدى إلى تقليص الدعم الدولي لحكومته، وخاصةً بعد تواتر تقارير عن استقوائه بـفرنسا، وازدياد اضطهاده للأقلية "التوتسية". تسبب ذلك في زعزعة أركان حكمه، وازداد الصراع بين أتباعه على

موارد البلاد المحدودة. تذمر الشعب من ظلمه وخداعه، وأعلن غضبه من سياسته الكارثية التي جرّت البلاد إلى الفقر والحرب. سعى "جوفينال" إلى إعادة سيطرته على الوضع، فلجأ إلى استخدام أبواقه المضللة في الإذاعة والصحافة لتزييف الوعي الجمعي للشعب "الهوتي"، وخلق عدو وهمي يختبئ خلف الحدود ويتحين الفرصة للانقضاض على البلاد.

ارتشف "ويليام" رشفة ماء، وتمعن النظر في "بيرت" قائلًا:

- على الجانب الآخر، تعرّض "التوتسي" إلى مأساة مروعة، قُتل فيها أكثر من نصف أفراده، ونُزح ثلث الباقين قسرًا إلى دول الجوار. عانى هؤلاء اللاجئون الأمرّين في مخيمات اللجوء، وفقدوا الأمل في العودة إلى وطنهم. دفعتهم هذه الظروف المأساوية إلى تأسيس "الجبهة الوطنية الرواندية" في (كامبالا) عام ١٩٨٧م، سعيًا منهم إلى استعادة حقوقهم المشروعة، والعودة السلمية إلى (رواندا).

تمتم "ويليام" بصوتٍ بالكاد يسمع وكأنه يعيد ترتيب أفكاره، ثم همس بصوتٍ مرتجف:

- استفحل الفساد في أرض الألف تلة، وانتشر كالسرطان في كافة شرايين المجتمع، وبدأت أصوات المعارضة تطالب برحيل الحكومة. حينها شعر "جوفينال" بوجود مؤامرة تحاك ضده في الخفاء، فأرسل جواسيسه إلى أروقة المعارضة، وحثهم على إثارة الفوضى والتظاهر بأساليب عنيفة بهدف تشويه سمعة المعارضة. وللأسف، استجابت قوى المعارضة لمكيدة جواسيسه، فانطلقت مظاهرات حاشدة في كافة أرجاء (كيجالي)، شارك فيها أكثر من

مئة ألف شخص، مطالبين بإسقاط النظام الفاسد. إلا أن "جوفينال" استغل هذه الفرصة لقمع المعارضة، فاعتقل أكثر من عشرة آلاف معارض، ومارس بحقهم أبشع أنواع التعذيب. حينئذٍ، أدركت "الجبهة الوطنية الرواندية" فشل الحلول السلمية، فشنت هجومًا كاسحًا من (أوغندا) وتوغلت داخل الأراضي "الرواندية"، لكنها منيت بهزيمة نكراء، وخسرت معظم قواتها نتيجة تدخل قوات (فرنسا) و(زائير) إلى جانب الجيش "الرواندي". على الفور، قامت "الجبهة الوطنية الرواندية" بإعادة تنظيم صفوفها وغيرت استراتيجيتها. اشتعلت حرب عصابات ضارية بين قوات الجيش "الرواندي" بقيادة "جوفينال" و"الجبهة الوطنية الرواندية" بقيادة "بول كاغامي"، استمرت هذه الحرب حتى منتصف عام ١٩٩٢م دون أن يحسمها أي من طرفي الصراع. أدرك "جوفينال" هشاشة موقفه السياسي وتصاعد الضغوط الدولية عليه لعقد محادثات سلام مع "الجبهة الوطنية الرواندية" ومعارضي الداخل.

انفجر "ويليام" ضاحكًا، ودوّى صوته في المكان، ثم هدأ رويدًا رويدًا، ورمى ببصره نحو "بيرت" و"جيف"، فجأة، ارتجف صوته الغليظ من شدة الغضب، ثم صاح بصوتٍ واهنٍ:

- عاد "جوفينال" إلى سياسته "الميكافيلية"، فوافق شفهًا على بدء مفاوضات سلام مع "الجبهة الوطنية الرواندية". وبالفعل، تم الاتفاق على مبادئ أولية للسلام في (تنزانيا)، لكن "جوفينال" سرعان ما نكث بوعوده مرة أخرى، وحرض أحزاب المعارضة الداخلية ضد بنود الاتفاق، وشجع على شن هجمات واسعة النطاق على "التوتسي" الداخل. ردت "الجبهة الوطنية الرواندية" بهجوم

مضاد قوي، كادت تصل إلى العاصمة (كيغالي)، لولا تدخل (فرنسا) لنجدته.

دفعت كل هذه الأحداث المتلاحقة في (رواندا) المجتمع الدولي إلى التدخل وتهديد "جوفينال" صراحةً بقطع المساعدات عن حكومته إذا استمر في عرقلة مساعي السلام. تراجع على الفور ووقع على اتفاقية "أروشا" للسلام، التي تقضي بتقاسم السلطة مع "الجبهة الوطنية" ودمج قواتها في الجيش والشرطة "الرواندية"، والسماح بالتعددية الحزبية. إلا أن "جوفينال" تعرض لانتقادات حادة ولاذعة من قادة الجيش لتوقيعه على هذه الاتفاقية، خاصة "تيونست باجوسورا".

أحس "جوفينال" بضياع هيبته بين قادة الجيش، فخطط سرًا لعملية عسكرية واسعة النطاق لاستئصال "التوتسي" والتخلص من معارضيه. فبدأ في عقد صفقات سلاح مع (الصين) و(فرنسا)، وشرع في تشكيل تنظيم سري متطرف من المرتزقة "الهوتو"، وأطلق عليه اسم "شبكة الصفر"، ثم تحين الفرصة لتنفيذ مخططه الإجرامي.

أغمض "ويليام" عينيه، محاطًا بأشباح الماضي، وخاض معركة داخلية قاسية، ثم همس بصوتٍ خافتٍ كأنها نبوءة مظلمة:

- وفي صبيحة يوم الأربعاء الموافق السادس من شهر أبريل عام ١٩٩٤م، عقدت قمة إقليمية مصغرة في (تنزانيا) لمناقشة الأوضاع الجارية في وسط شرق (أفريقيا)، بحضور الرئيس "الرواندي" "جوفينال"، الذي تعرض لانتقادات حادة ولاذعة من الرؤساء المشاركين بسبب مماطلة حكومته في تنفيذ بنود اتفاقية "أروشا".

وبعد انتهاء أعمال القمة، غادر "جوفينال" برفقة الرئيس البورندي "سيبريان نتاريااميرا" عائدًا إلى بلاده على متن الطائرة الرئاسية "داسو فالكون ٥٠"، وبينما كانت الطائرة تقترب من مجال مطار "كيغالي" الجوي، استعدادًا للهبوط، سمع صوت بوق يصدح في أفق المكان، وكأنه إشارة، أطلق من بعده صاروخين أرض جو تجاه جناح وذيل الطائرة. اشتعلت النيران فيها في الحال، مما أدى إلى سقوطها في حديقة القصر الرئاسي وتحولها إلى حطام.

انزعج "جيف" بعنف، وصرخ في دهشة:

- بكل هذه السهولة يتم اغتيال الديكتاتور "جوفينال"؟

أجابه "ويليام":

- يقال في أروقة صناعة المؤامرات: إن أردت قتل طاغية فعليك بخائن من حاشيته. فلطالما حيكت المؤامرات في دهاليز السلطة، وتاريخ البشرية مليء بقصص الحكام الذين سقطوا ضحية خيانة من أقرب المقربين. ومع مرور الوقت، بدأت تتكشف حقيقة عملية اغتيال "جوفينال"، التي نفذها بعض من قادة الجيش والحرس الجمهوري، وهذا هو الأقرب إلى الصواب.

صاح "جيف" قائلاً:

- كل الاحتمالات قائمة في مزادات بيع الضمير.

صرخ "ويليام" قائلاً:

- كلما خمدت جذوة آلامي، أرسلت كلماتك قرابينها إلى مذابح أوزاري، لتُشعل نيرانها المتأججة في أعماقي من جديد.
- كلنا نخطئ ونصيب، يا "ويليام".

هز "ويليام" رأسه، وصاح:

- عقب تأكد السفير الفرنسي "جان ميشيل مارلو" من مقتل الرئيس "هابياريمانا"، عقد اجتماعًا عاجلًا مع كبار قادة الجيش "الرواندي" في مقر السفارة "الفرنسية" بالعاصمة (كيغالي). تم خلاله تشكيل لجنة أزمة برئاسة الجنرال "تيونيست باجوسورا" لاحتواء تداعيات هذا الحدث الجلل.

انكدرت قسمات "ويليام"، وشهق بصوتٍ نافرٍ، ثم أردف حديثه بامتعاض قائلًا:

- يقول المثل الشعبي "سلموا القط مفتاح الكرار"، لكن في (رواندا) وضعوا الذئب في حظيرة الدجاج وأغلقوا عليه كل الأبواب! فبعد اغتيال الرئيس "هابياريمانا"، تم تعيين الطبيب المتطرف "تيودر سينديكوبوابو" رئيسًا مؤقتًا للبلاد، بدعم من صديقه المجرم "تيونيست باجوسورا".

فجأة، أجهش "ويليام" بالبكاء، واستغرق في بكائه حتى نضبت أنهار دموعه، ثم صاح بصوتٍ باكٍ:

- وفي اليوم التالي..

انقطعت أنفاسه من شدة بكائه، انفطر قلب "بيرت"، فهرولت إليه وربتت على كتفه، وكفكفت دموعه بأنامله الحانية. أطبق الهدوء على نبراته المتعبة، وخشع المكان لصمتٍ عميق، وبعد برهة همس بصوته الحزين:

- أصدر السفاح "باجوسورا" أوامره للحرس الجمهوري والجيش "الرواندي" بشن الهجوم على "التوتسي" والمعارضين "الهوتو".

وعلى الفور اقتحم أنصاره منزل رئيسة الوزراء "الهوتية" "أجاتي يوينجلييمانا" واغتصبوها ثم قتلوها، بطريقة وحشية هي وحراسها "البلجيك". حذا "تيودر سينديكوبوابو" حذو صديقه السفاح "باجوسورا"، وحرض الشعب "الرواندي" على الانتقام من "التوتسي"، متهمًا "الجبهة الوطنية الرواندية" بقتل الرئيس "الهوتي" "جوفينال". ارتكب "الهوتو" مذابح مروعة في حق "التوتسي" والمعارضين، وخلال مئة يوم دامية، شهدت (رواندا) إبادة جماعية منظمة، شارك فيها الجيش والشرطة والعصابات المتطرفة، حتى الأطفال والنساء تورطوا في هذه الجرائم البشعة.

٩

جلست "روهندا" في باحة بيتها تتأمَّل وجهَ اللَّيل العابث، وهو ينثر سواد ظلمته على صفحة سمائها، مخفتًا وهج الحياة الصَّاخبة في قريتها، استغرقَت تتأمَّل الظلمة وحكمة تعاقب اللَّيل والنَّهار، حتى تجلَّى إلى يقين أَعماقها أَنَّ القُوَّة تولّد من رحم الضَّعف، كأَنّها تعيد بناء جدران شجاعتها المهدَّمة.

خلت ساحة القرية من المارَّة، واحتل صمتٌ مدويٌّ أرجائها، نهضت "روهندا" ومضت إلى حجرة نومها، وانطرحت على فراشها مُشغولة البال، لا تفكر إلَّا في مواجهة الوغد "كابوجا"، بعدما تجرَّأ وطلب صفحها وغفرانها.

هاجت صرخاتها تحت وطأَة سكون الليل، واختلطت بنات شفتيها بدموعها الرَّقراقة، نظرت إلى السَّماء تتضرَّع بصوتها الواهن:

- يا منير ظلمتي، وملجأ متعبِّي، يا قوَّتي وعزوتي، أسألك بقوتك أن تعينني على قهر خوفي، أَن تمنحني قُوَّة الحقِّ وجسارةَ النَّفسِ، أَن تثبِّتني على طريق الحقِّ واليقين.. يا منير ظلمتي، وملجأً متعبِّي، أسألك أَن تعينني على محنتي، أَن تفرِّج همِّي، وتزيل حزني.. يا منير ظلمتي، أَنتَ رجائي وملجئي.

أجهشت بالبكاء، وانسابت دموعها على وجنتيها حتى تبلَّلت صورة "موليسا" المعلقة بقلادتها، كفَّكفت دموعها، وتفرست في الصور، ثم نزعتها وجفَّفتها، واستغرقت تتأمل فيها، حتى شعرت أنَّ "موليسا" ينظر إليها بخجلٍ، كأَنَّه يتأَسَّف لها عما جرى، حضنتها، وهمست بصوتٍ باكٍ:

- لِمَ الأسف يا حبيبي على غدر من وثقنا بهم، وملكناهم أصفاد أرواحنا؟ لا تأسف؛ فما ذنب السِّكِّين في ذبح الشاه وسلخها؟! الذَّنب ذنب الوغد الَّذي أَرغمها على الذَّبح والبطش.. لا تأْسف يا حبيبي وهمس حنيني ومرفأَ أحلامي، وكل سنيني، وصدقني يا قرة عيني، سأَقْتَصُّ من الوغد، وسأجعلهُ يندمُ على جرأته ووقاحته.

استلقت "روهندا" على فراشها الوثير بالهموم وهي تتقلَّب على جنبيها، وتئنّ خوفًا من غدها، أكل القلق ليلها، وسامرتها الهواجس، وفرَّق الخوف بين جنبيها ومهدها، وتلكَّأَ الوقت وتلذَّذ في تعذيبها حتى أرغمها الإعياءُ على النَّوم رغمًا عنها، ومع انبلاج الصَّبح، هبت من غفوتها مفزَّعةً، تلفتت من حولها كمن يترقَّب عدوًّا، نهضت من فراشها مسرعة، وهرولت إِلَى الشُّرفة، وأطالت النَّظر في سَّاحة القريةَ الخالية من المارَّة، ثمَّ عادت تناجي النَّوم لعلَّه يؤنس وحشتها، جفا النَّوم أَجفانها، هامت تقلِّب صفحات ماضيها؛ هذه صفحات الغدر والخيانة، وهذه صفحات القسوة والأَلم، وهذه صفحات القتل والاغتصاب، وهذه صفحات أخرى مُتشابكةٌ ما بين الحياة والموت.

حطّ عصفورٌ على شرفتها، وراح يزقزق ويمزق خيوط كدرها، ظلّ يصدح دون أن يبرح مكانهُ كأنّه يناجيها، التفتت إليه وغمرته بنظراتها الدامعة، لكنه تركها وحلّق فوق ساحة القرية، وغابَ بين الأشجار، ابتسمت، وشعرت بالراحة، كأنّها تلقت رسالة عشقٍ وطمأنينة من "موليسا".

نهضت من فراشها، وهامت بين جدران بيتها، حتى أضحى الصباح، وانتهى قداسُ كنيسة "نجوما"، بدأ دبيب أقدام أهل القرية يبدد صمت الساحة، نظرت من خلف الشرفة إلى الساحة، تلاقت عيناها بأفواج أهلِ القرية وهم مقبلون على باحة بيتها من كلّ حدبٍ وصوبٍ،

ارتجفت أوصالها، وعلا الهلع سحنتها، جلست على الكنبة تحضن ترائبها من شدة خوفها، وكلما اقتراب وقت المواجهة عربد الخوف بأجنانها، لكنّها تصنّعت الجياشة والمصابرة والعزيمة، حينما أطرقت السمع إلى صوت الأب "أرنست" الهادر وهو يناديها من خلف الباب:

- أُمَّاهُ؟!

تماسكت بتلابيب صبرها، وبيقين عدالة قضيتها، واستحضرت من ذاكرتِها حديثَ "جيف": "أتمنى أن يأتي اليوم الذي تثورين فيه على خوفكِ، وأن تنفضي من حياتكِ وهم المثالية الزائفة والمقيتة"، تنهدت من أعماقها، ثم أجابت الأبِ "أرنست" بصوتٍ رعدي مفعم بالعزيمة والثبات:

- مَن بالبابِ؟
- أنا "أرنست"، يا أمَّاه.

ارتجفت خلف بابها، وزأرت فيه:

- هل الوغد جاءَ؟!

تنفس الصعداء، وأجابها هامسًا:

- نعم يا أمَّاه، والكلُّ في انتظاركِ.

صمتت صمتًا ثقيلًا، ثم أجابته بصوتٍ جهوريٍ:

- إذن أمهلني برهة.

تجمهر أهل القرية، وتزاحموا في ساحتها الواسعة، وتحلقوا حولَ "كابوجا" المتكئ على ذراعي ابنيهِ "موهيري" و"ندوري" بجسدِه السقيمِ، وقلبه المرتجفِ، وبصرهِ الغائمِ من عتمةِ ذنوبه، وتهامس أهل القرية فيما بينهم، وتناهى إلى مسامعِ "كابوجا" وابنيهِ همس حديثُهم

عن حسنِ خلقِ "روهندا"، وطيبتها وسماحتها، وأملهم في الصفح عنْ قاتلِ زوجها.

تأخر خروجُ "روهندا"، تعالت الأصواتُ وتداخلت، وعمت الفوضى أطرافَ الساحةِ، فجأةً، ساد الصمت، وعلت الوجوه غبرةٌ الخوف، وشحذت أبصارُهم إلى "روهندا" حينما خرجت عليهمْ وهي تمسكِ بساطورٍ صدئ، وترتدي جلبابًا ممزقًا وملطخًا بالدماءِ، يظهرُ من جسدِها أكثرُ مما يخفيهِ، خطت بينَ الحشودِ بخطى وئيدةٍ حتى وصلت إلى "كابوجا"، لكنها تجاهلتهُ، ومضت تجوبُ بينَ الحشودِ في كبرياء، ناداها "كابوجا" بصوته المتعبِ الباحثِ عن سلامِ النفسِ:

- "روهندا".. "روهندا".

تسمّرت مكانها، وخفقَ قلبُها خفقاتٍ زاعقةٍ عربدت بضلوعِها، لكنّها تجاهلتهُ ومضتْ تشقّ طريقها بينَ الحشود دونَ أن تُلقيَ لهُ بالًا، لكنّه صاح من نياط قلبِه:

- "روهندا".. "روهندا".

مضت إليه على مهلٍ، ثم وقفت أمامه واثقةَ النفس، شذرت إليه بنظراتها المُشحونة بالانتقام، وزأرت في وجهه بصوتٍ محمومٍ بالغضب:

- كُلَّما رأَيتُ سحنتك البائدة، كان يعتريني الخوفُ والهلع، وتتأَذَّى مشاعري، وأَتوارى خجلًا مِن نفسي، لكنّي الآن لا أَخشك، ولا أخشى النَّظر في وجهك الدَّمِيم، أَيَّهَا الوَغَدُ.

افترت شفتيها عن ابتسامةٍ عابثةٍ، وتوقدت في عينيها نظرةً ساخرة، لمزتهُ بكلماتها اللاذعة:

- عجيبةٌ هي طبائع البشر، لا يشعرون بالندم إلا عندما تدركهم خائنة العمر، ويخفتُ في أصلابهم عنفوان قوتهم، ويرتق الوهن أجسادهم، حينها وحينها فقط تنقلبُ النفس على صاحبها وتتبرّأُ من أفعالهِ وأوزارهِ، وتلقيهِ في جرفِ ظلمهِ السحيقِ، لتنهشُ فيه مظالم ضحاياهُ، أليسَ كذلكَ أيها الوغدُ العفنُ؟!

نكسَ "كابوجا" رأسهُ في خجلٍ، ولاذَ بصمتهِ، انصرفت "روهندا" بوجهها بعيدًا عنهُ، ونظرت إلى الأبِ "أرنست"، وسألتهُ نفس السؤال:

- أليس كذلك أيها الأب "أرنست"؟!

أحنى الأب "أرنست" رأسه، وأجابها بصوتٍ خفيضٍ:

- أَنتِ محقَّة يا أمَّاه، لكن من منَّا بلا خطيئةٍ؟! كلنا نخطِئ ونترجَّى العفو والغفران والصَّفح.

أَشارت بإصبعها إلى "كَابوجا" ونادت أَهل قريتها بصوتٍ رنانٍ يخترقُ الأَفق، مُخاطبةً مشاعرهم وأَوتار قلوبهم:

- يا أَهل قَريتي هَذا هو جلَّادي الماكرُ الخبيثُ بقَلْبه البائر، ماثلٌ بين أيديكم يستجدي الصَّفح والغُفرانَ، وتناسى صرخاتي وهي تترجَّاهُ في يأْسٍ، أَن يكفَّ يدهُ عن زوجي وعنِّي، لكنَّهُ تلذَّذ بجلدي وتعذيبي بسياط غدره.

غرست "روهندا" نَّظرتها في قسماته المُتآكلة كَأَنَّها تُحاولُ شَقَّ صدره بسهام نظراتها، ثم أَوجعت مسامعهُ بصراخاتها كأَنَّها تُفرِّغ أوجاع حياتها في حنايا قلبه:

- أَيَّها الوغدُ، الآنَ تَبحثُ عَن الصَّفح في قَلبٍ بات يكرهُك ويمقت النَّظر إلَيكَ.

طأطأ رأسه، فاقتربت " روهندا" منه وهمست تُخاطِب أعماقه:

- أَتخشَى النَّظر إلَى وجهي؟!

زاغ ببصره هربًا من نظراتها المُخيفة، واستغرق في صمته المُخجل، ولغطت خفقاتُ قلبه، وبدا على وجهه أنواء السّقم، وكاد يسقط على الأرض، فأمسك به "موهيري" و"ندوري"، لكنهما جثيا به على الأرض من شدة تعبه وخجله، خبَّأَ وجهه بعيدًا عنها، وحاول التقاط أنفاسه، لكنها صاحت فيه بصوتٍ حانقٍ:

- أَتخشى النظر في وجهي؟ أم تخشى شيب حُزني المتغلغل في وجداني؟ أم حسبتك نادمًا على قتل من هو أحق بالحياة منك؟ أَجِبني أيها الوغد الجبان؟

ركضت صوبه، ثُمَّ رفعت السَّاطور بأعلى هامتها، وهمَّت بالانقضاض عليه، انقبضت أَجنان أهل القرية، وانحبست أَنفاسهم، هرول الأبُ "أَرنستُ" إليها في فزعٍ، لكنَّها لوَّحت إليه وطالبتهُ بالابتعاد والبقاء مكانه، تراجع للخلف وهو يستجديها:

- أرجوك لا تفعليها يا أُمَّاهُ.

طافت حول جسد "كابوجا" المُرتعد، وانعقدت في مقلتَيها نظرةُ انتقامٍ، ثم وقَفت أَمامهُ وصاحت فيه، وهِي لا زالت تُشهرُ ساطورها في وجهه:

- أتهابُ الموتَ أَيَّها الوغدُ الجبانُ، وأَنتَ سيَّافهُ؟

هوت بساطورها تَجهِزُ عَلَيه، ندَّت من أَفواه الحشود المكتظة صراخاتٌ مدويَّةٌ، لكنَّها سرعان ما تراجعت ورفعت ساطورها قَبل أَن يلتقي برأْسه، صاحت فيه، والكُلُّ يترقَّبُ ردَّة فعلها:

- أجبني وإلا قتلتُكَ، ماذا تريدُ مني؟!

تلعثم، وأجابها بصوتٍ خافتٍ مرتعشٍ، بالكادِ يسمعُ:

- أريدُ الصفحَ والغفرانَ يا "روهندا."

زمجرت في وجهه، وكشرت عن غضبها، وصرخت وهي ما زالت تلوِّحُ بالساطور فوق رأسه:

- لم أسمع، ماذا قلت؟!

اتكأ "كابوجا" بجسده السقيم على أوتار الندم، وانهارت حصون شجاعته تحت وطأة الخوف، فهمس يعترف بجريمته بصوتٍ خاشعٍ:

- اعترف بأنّي مذنبُ، وأنّي قتلت صديقي "موليسا"، وأريد الصفح والغفران.

هبت ثائرتها، وزأرت في وجهه بنبرات صوتٍ قاسية كأنها صدى رعد:

- لا تدنس اسمه بشفتيكَ أيها الوغد!

أغمَدت ساطورها الصدئ، ودارت حَولَه مرات ومرات كأنها ترقص رقصة الموت، بينما وقف أهل القرية ينظرون إليها في خوف ورهبة، فجأة، دنت منه، وهمست في أذنيه بصوتٍ هامسٍ، كأنها تهمس له بأسرار انتقامها:

- شمّ رائحة دم صديقك الممزوج بدمي، ورائحتك النتنة.

قاطعها بنبرة حزينة ممزوجة بالأسى:

- أرجوكِ كفى.. كفى.

تركته من خلفها، ونادت بأعلى صوتها في أهل قريتها:

- يا أهل (نجوما)، أنا لا أمانع الصفح عن هذا المجرم.

هبَّت نسمات الفرح تعانق وجوه أهل القرية، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي الأبُ "أرنست"، بينما تبادل "موهيري" و"ندوري" نظرات مليئة بالأمل والفرح، فجأة، رفعت "روهندا" يدها إيماءً بالسكوت، ثم ارتفع صوتها القويّ مطالبًا بالهدوء والتريث، ازددت الأصوات وتشابكت وخيمت الفوضى على أطراف الساحة، رفع الأبُ "أرنستُ" يده صائحا:

- كلنا طوْع يديك يا أمَّاه.
- ليس لديّ مانع من الصفح عن هذا الوغد، لكن بشرط!

صاح "كابوجا" بلهفه:

- موافق على أي شرط، يا "روهندا".

اندفعت نحوه، وسألتهُ بلهجةٍ حادةٍ:

- أأنتَ جادٌ أيها الوغدُ؟

أجابها بصوتٍ خافتٍ:

- نعم، أنا جادٌّ، حتى يرتوي ظمأ روحي بماء السَّكينة وتنعمَ بالسلام.

ابتعدت عنهُ تاركةً إياهُ وحيدًا يمتطي صهوة أماله، ثم نظرت إليه مباشرةً، وطلبت منه اعترافًا صريحًا، قائلةً:

- إذن أخبرهمْ واعترفْ بما فعلتَهُ، أيها الوغد!

خيَّم صمتٌ ثقيلٌ على أروقة المكان، وسيطرت الحيرة على أهل القرية، تناجوا فيما بينهمْ همسًا، ثمّ تشنجت صيحاتُهم تُنادِيه، وتُصر عليهِ بالاعترافِ:

- "كابوجا".. "كابوجا"، اعترف يا "كابوجا"، حتى تنالَ المغفرةَ والرحمةَ.. اعترف يا "كابوجا".

شَحَذَ "كابوجا" ببصره إليهم، متلقيًا سهامَ نظراتِهمْ المحدّقة بصدرٍ عارٍ، غشّاهُ الحزنُ، ونفث من صدرهِ مُنَاجاةَ نادمٍ:

- أنا مذنبٌ وأعترفُ بذنبي.

تلعثمَ قليلًا، واستكملَ اعترافاه قائلًا:

- نعمْ، قتلتُ صديقي "موليسا" في لحظةِ ضعفٍ.

هدرتْ "روهندا" صارخةً في وجهه:

- بل قُل قتلتهُ في لحظة انعدم ضميرك، أيها الوغدُ الخسيسُ!

حدّقَ "كابوجا" فيها بنظراتٍ ممزوجةٍ بالشفقةِ والأسى، وردّ عليها قائلًا:

- أهذا يكفي يا "روهندا"؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ ساخرةٌ، وسألتهُ بتهكمٍ:

- هل هذا كلّ ما فعلتهُ أيها الوغدُ العفنُ؟!

ارتجفَ جسده، وعقد لسانه، ولم يفلح في الردّ عليها، صرخت فيهِ بغضبٍ:

- أخبرهم بكلّ الحقيقة أيها الجبانُ الحقيرُ!

اقترب الأبُ "أرنستُ" من "روهندا" بِخطى هادئة، مُحاولًا تهدئتها، قائلًا:

- يا أُمَّاهُ، لقد اعترف بذنبه، ألا يكفي هذا لتسامحيه وتصفحي عنه؟!

اتّسعت حدقتيها غضبًا، وصرخت فيه:

- أسأله أنت، أيها الأب، ماذا فعل بي؟!

التفتَ الأبُ "أرنستُ" إلى "كابوجا" مُتوسّلًا إليه:

- أرجوكَ اعترف بما فعلتهُ.

إنهارَ "كابوجا" باكيًا، وصرخَ يُترجّاها:

- أرجوكِ هذا يكفي.

توسّلَ كلٌّ من "موهيري" و"ندوري" إلى "روهندا":

- أرجوكِ يا أُمَّاهُ، أكفينا ذلّ المهانةِ.

انهمكَ "كابوجا" في بكائهِ، والتفتت "روهندا" ببطءٍ إلى هتافاتِ أهلِ قريتها التي تُلحّ عليها بالصفحِ عنهِ، وأشارت إليهم بالصمت ثم نادت فيهمْ بصوتٍ مُثقلٍ بالحزن:

- سأخبركم أنا بما فعلهُ هذا الوغدُ، وسأتركُ لكمْ الحكمَ وتحديدَ مصيرهِ.

صرخ "كابوجا" فيها مُتوسّلًا:

- أرجوكِ يا "روهندا".

انطلق صوتها يزلزلُ أجساد الحشودِ وأرجاءَ الساحة، بينما كان "كابوجا" يصرخُ بأعلى صوته:

- أرجوكِ يا "روهندا"، لا تُفشي السرّ.

وقفت "روهندا" أمام "كابوجا" كالصخرةِ الراسخةِ، وهي مصممةً على فكّ طلاسمِ صمتِها، وكاشفةً كلّ ما يُثقلُ قلبَها دون هوادةٍ، فصرختْ فيه صرخاتٍ حارقةً هزّتْ كيانهُ وألجمتْ لسانهُ:

- لنْ أمضي بعدَ اليومِ في دروبِ الضعفِ والهوانِ، ولنْ أُرهقَ نفسي كمدًا وحزنًا خشيةَ هتكِ سترِ سريّ الدفينِ في أحشاءِ قلبي.

شذرت إليه، وارتجف جسدها غيظًا، وانفجرت تصرخ فيه بكل ما أوتيت من قوة:

- للمرة الأخيرة، أيها الوغد، تكلم وأخبرهم بما فعلته، لعلك تنال صفحي!

أجابها بصوتٍ دامع، يملأه السقم:

- اعترفت بذنبي، وقلتُ ما عندي.

اتّخذ الموقف منحىً تصاعديًا من التوتر، وخيم الصمت القاتم على أربضة المكان، ككفن يلفّ كلّ ذرّة أمل، فجأة، شقّت "روهندا" صفوف الحشود، وهي تجري كالممسوسة، وصرخاتها تملأ فضاء الساحة:

- آنَ لكلمة الحقّ أن تُفْرِج عن نفسها من قيود الظلمة، ومغادرة جب ظلمات النفس، آنَ كشف الحقيقة! وهأنا أصرخ من أعماقي، بكل أوجاعي وأحزاني، يا أهل قريتي، هذا الوغد قتَلَني مرتين! نعم، قتَلَني مرتين! قتَلَني حين اغتال زوجي الحبيب "موليسا"، وقتَلَني حين..

قاطعها "كابوجا" وصاح بصوتٍ عالٍ يستجديها:

- أرجوك كفى.

اصفرّ وجهه، واختنقت أنفاسه بالدموع، واهتزت الأرض من تحت قدميه، فارتجفت أطرافه، وسقط متهالك القوى، جثا على ركبتيه حتى لامس جبينه صعيد الأرض، ثم أنفجر بالبكاء، فصرخت فيه بلهجة قاسية:

- أتبكي أيها الخسيس من الفضيحة؟!

لفظت بجواره على الأرض، وازدادت حدّة نظراتها إليه كأنها برق خاطف، ثم صرخت في وجهه كأنها تزأر:

- حسبتك تبكي ندمًا على جروحي الغائرة.

دَّعته يبكي بحرقة، ثم وقفت وسط الحشود وصاحت فيهم:

- هذا الوغدِ قتلَ زوجي وذبحهُ أمامَ عيني، نعمْ قتلَه بهذا الساطورِ.. قتلُ صديقهِ.. ذبحٌ زوجيٌ وركلُ رأسهِ، ولمْ ينتهِ عندَ هذا الحد ولا عند هذا الجرمِ، بل تجرَّد من إنسانيته وانقض على جسدي، ومزّقَ ثيابي الملطخةَ بدماءِ صديقهِ، وكشفَ عن عورتي دون خجلٍ أو حياءٍ، واعتلى جسدي، واستحلَّ جوارحي، وأخذ يتلذَّذ بتعذيبي في أشتياه.

صرخت "روهندا"، وصرخاتها تُدمي عيون ملائكة السّماء:

- هذا الوغد اغتصبني وهتك ستري وصبَّ جم فحولته في طهارتي، وأنا لا حول ولا قوة.. نعم هذا الوغد أجهزَ عليّ ودنسٌ طهارتي، وظلَ يغتصبني حتى ذبح شرفي، نعم، اغتصبني.. اغتصبني.. اغتصبني..

أُصيب الجميع بالذهول، وتناثرت سهام اللوم تنهال على "كابوجا"، وتعالت موجات الاستهجان، وارتفعت أصوات السخط، سكتت "روهندا" تحت وطأة صراخهم، وتجمدت ملامحها، وخيم الصمت المطبق على أوصالها، وبعد أن تلاشى الصخب وهدأت الأصوات، وخيم الهدوء على المكان، همست والدمع ينهمر على خديها كاللؤلؤ المنثور:

- هذا الوغد اغتصبني مرات ومرات وجعلني أشعر بالموت وأنا على قيد الحياة، وتركني أتجرع كؤوس الهوان والخزي، وليته قتلني وأراحني من عذابات نفسي.

هاجت صرخات نساء القرية وشاركوها لوعة بكائها، مضت "روهندا" إلى "كابوجا"، ودنت من وجهه الغابر في التراب، وأمسكت بطرف جلبابها الممزق والملطخ بالدم الخافت، ثم صرخت فيه:

- أتتذكر هذا الثوب الذي مزقته وكشفت عن عورتي وأنت تغتصبني؟ انظر إليه وإلى الدم الذي سال من جسدي، وأنا أصرخ وأستجديك أن تتركني.

تنهدت من أعماقها، ثم أردفت تصرخ فيه:

- الآن انقلبت موازين القوة وتبدَّلت، أنت تترجَّاني وتستجديني، وتتمنَّى صفحي. إنها عدالة القدر، أيُّها الوغد الأشر.

ألقت "روهندا" بالساطور من بين يديها، وجثت أمامه على ركبتيها، ثم صرخت فيه بصوتٍ يقطر مرارة:

- أين كان ضميرك وأنا أتسول منك الرحمة؟ أين كانت إنسانيتك وأنا أرجوك أن تتركني وشأني، وأن تكف عن قتل زوجي، وأن ترحم ضعفي وهواني؟

نهضت من أمامه، وتركته خلفها يحمل أوزار عاره، ثم نادت في أهل القرية بصوتٍ يصدح بالألم:

- نعم، هذا الوغد اغتصبني مرة تلو الأخرى، وأنا أنظر إلى رأس زوجي وأترجاه أن يفعل شيئًا، أو يسامحني على ضعفي.

كفكفت دموعها، ووقفت شامخة بين الحشود، ثم صاحت:

- الآن الحكم لكم، إن أردتم أن أصفح عنه، سأصفح.

بكى الجمع حزنًا، وولوا الدبر. هرول الأب "أرنست" إليها وأمسك بيديها، ثم همس بحسرة:

- لا شيء يغفر فعلته، يا أماه، لا شيء يغفر فعلته، يا أماه.

سقط "كابوجا" على الأرض، فحمله "موهيري" و"ندوري" وانصرفا.

١٠

غاص "جيف" في نومه العميق، واستغرق في سباته بأوصاله المتعبة من وطأة عناء فكره ومشقته، حتى إنه لم ينتبه إلى طنين هاتفه المزعج، ولم يتحرك منه ساكنًا، وظل مستغرقًا في غياهب اللاوعي، حتى عاود هاتفه تمزيق صمت سكون مخدعه المفروش بالهدوء والسكينة، وسطا على سباته بصوته النافر. تقلب ذات اليمين وذات الشمال، ثم شذر إلى المنضدة بعينيه الناعستين، ومدّ يده إليها ببطء، أمسك بهاتفه، وتفحصه وهو يتثاءب، ثم استلقى على ظهره وأجاب بصوتٍ غارق في النعاس قائلًا:

- ألو.

أنصت "جيف" إلى "ويليام"، وأجابه مستغربًا، وهو يحاول استيعاب سبب اتصاله المفاجئ في ساعة مبكرة:

- صباح الخير يا "ويليام".

أومأ "جيف" برأسه قائلًا:

- أنا بخير.. كيف حالك أنت و"بيرت"؟

استفاق "جيف" من غفوته، وغصّ بريقه، وانتفض من مكانه، ثم صاح في "ويليام" بفضولٍ وبنبرةٍ ملحةٍ مُفعمةٍ بالترقب:

- "بالطبع أتلهف إلى رؤيتهم.

شرد "جيف" بنظراته الحالمة في لوحة زهرة البنفسج المعلقة بجوار الشرفة، وسرح بخياله يتأملها كأنه يراها للمرة الأولى، هام يتخيل ملامح "فوستن" و"هيلين" و"يوجين" البريئة، وتذكر تجاعيد

"روهندا" المنحوتة بإزميل الدهر.. ارتجفت فرائصه، واستيقظ من أحلام يقظته على صرخات "ويليام" الغليظة المعربدة بسماعة هاتفه:

- "جيف".. "جيف".

عاد "جيف" إلى رشده، ثم همس على استحياء قائلًا:

- عذرًا يا "ويليام".

سأله بلهفة:

- متى، وأين سأراهم؟

هزّ "جيف" رأسه وهو ينصت إلى "ويليام"، ثم همس مؤكدًا:

- تمام، سأنتظرك عند السابعة مساءً، أمام باب المبنى الأرجواني بمنتزه "دو لافيلت".

ارتكن "جيف" على مخدعه، يتأمل ويلات الحرب وقسوتها على الأبرياء، ضاقت أنفاسه، وبدت له جدران الحجرة قاتمة ومخيفة كجدران سجون الحروب البائدة، انتفض من فراشه وهرول مسرعًا إلى الشرفة، أزاح ستائرها وفتح ضلفتيها عنوة، وأخذ يستنشق نسمات الهواء المعقبة بالصقيع، حتى استعاد هدوء أنفاسه المتعاركة، ثم عاد إلى مضجعه، استلقى على ظهره، وأغمض عينيه وتقلب على جنبيه راجيًا النوم، ومجابهة خوالجه الناقمة على جرائم القتل والذبح في شتى بقاع الأرض؛ إرضاءً لنفوسٍ عامرةٍ بعبادة الذات.

ظل "جيف" يتقلب على جنبيه بين اليقظة والنوم، حتى جرَّته الدقائق والساعات نحو المغيب. استيقظ من نومه عابس الوجه، حاول طرد بقايا نعاسه وعبوسه، شذر إلى قرص الشمس الشاحب وهو يعتلي هامة برج "إيفل" ويُرسم فوقها تاجًا من خيوطه السخيمة، وسَنَا تبره

الباهت، كأنه يُسترضيه ويُراوده ويستجديه كي يحميه من الأفول، لكن طبول الليل أسرته في محراب غسقها.

نهض "جيف" من فراشه وتجول في زوايا البيت محاولًا إهدار الوقت، بينما كان عقله مشغولًا بلقاء أبناء "بيرت"، ومن حين إلى آخر يسترق النظر في ساعته "الديور"، حتى اقتربت عقاربها من السادسة مساءً، بدل ملابسه، ثم خرج من بيته متوجهًا إلى منتزه "دو لافيلت".

وصل "جيف" إلى بوابة المنتزه الرئيسية، ولج منها وشمل المكان بنظراته الحالمة برؤية "فوستن" و"هيلين" و"يوجين"، ثم وقف أمام باب المبنى الأرجواني، وهو يتلفت من حوله باحثًا عن "ويليام" أو "بيرت". وبينما هو واقف يترقب وينتظر، سمع حفيف صوت أنثوي يناديه همسًا:

- سيدي.. سيدي.

أخذ "جيف" يتلفت عن يمينه وعن يساره، ولا زال صدى حفيف الصوت الأنثوي يناديه تارةً، ويخفت تارةً أخرى. فجأةً، وقعت عيناه على فتاة سمراء، ممشوقة القوام، كحيلة العينين، تقترب منه وتحدق فيه بابتسامتها المرهفة. أشاح بوجهه بعيدًا عنها، لكنها اقتربت منه شيئًا فشيئًا، واستحلت نظراتها الهائمة كل جوارحه. تنكر لها، اقتربت منه أكثر فأكثر، ثم اندفعت نحوه وعانقته، وهمست في أذنه:

- سيدي.. سيدي.

التمعت عيناه خجلًا، وأجابها بصوتٍ خفيضٍ:

- أأنا من تقصدينه؟

تملَّص من عناقها، تبخترت من حوله بخفة ودلال، وهي تداعب تلابيب ملابسه، ثم همست برقة:

- نعم، أنت مقصدي، وأنا أشتاق إليك في صحوي ومنامي. خذني بين أجنحة العشق، وحلق بنا بعيدًا في سماء الحب واللذة.

حضنته من خصره، ونظرت إلى قسمات وجهه، وتمعنت في زرقة عينيه، وتغنجت بصوتها:

- أتبحث عن رفيقة؟!

ارتعدت أوصاله خجلًا، وتصبب جبينه عرقًا، فهمّ بالابتعاد عنها، فجأةً، ظهرت "بيرت" من العدم وهي مُستغرقةً في نوبةٍ من الضحك الهستيري، ثم اقتربت منه وسألته بلهفةٍ:

- ماذا فعلت بك هذه الشقية؟!

تنفّس "جيف" الصعداء، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم شاركها نوبة ضحكها. جذبته من يديه وهرولت إلى طاولة في وسط المنتزه. استقبله "ويليام" بابتسامته العريضة، صافحه هو ومن معه، ثم جلسوا جميعًا مستغرقين في الضحك. همهم "جيف" وهو يضحك قائلًا:

- ها.. ها، هذه الشقية كادت تفتك بي، ها.. ها.

تنهدت "بيرت"، ثم أشارت إلى "هيلين" و"يوجين" و"فوستن"، وهمست بصوتٍ هادئٍ مخفوق بالضحك:

- هؤلاء هم أبنائي وقرة عيني، ونبض قلبي وكل حياتي.

التفت "جيف" إليهم وتأمل ملامحهم البريئة، ثم أردف قائلًا:

- اليوم تحقق جل أحلامي بلقائكم.

أجابوه بصوتٍ واحدٍ متداخل:

- نحن من سعدنا بلقائك، سيد "جيف".

ابتسمت "بيرت" وأشارت إلى "هيلين" قائلة:

- هذه "هيلين" الشقية، ابنة قلبي، ورفيقة أفراحي وأتراحي.

ابتسمت "هيلين" بملء شدقيها، وهمست قائلة:

- سيد "جيف"، أنا ما زلت أنبش في أنصاب الرجال عن رجل جميل مثلك، فهل تمانع الزواج بمن أضناه الشوق؟!

ضحك "جيف" بصوتٍ عالٍ، وأجابها قائلًا:

- وأنا أبحث عن قمر يضيء سمائي المظلمة.

انفجر الجميع في نوبة ضحك، وبعد برهة من الصمت الممزوج بالشهقات، أردفت "بيرت" قائلة:

- "هيلين" درست الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة "باريس"، وهي معيدة بذات الجامعة.

انبهر "جيف"، وتأملها بنظراته، وامتلأت عيناه بإعجاب غامر، ثم صاح من شدة سعادته:

- كم أنا فخور بكِ، وكم هو شرف عظيم أن أراك في جامعتي، جامعة "باريس" العريقة.

التفتت "بيرت" إلى "يوجين"، وهامت في قسماته وجهه البريئة، ثم همست بصوتٍ يلامس أوتار قلبه:

- وهذا "يوجين" الطيب، الأقرب إلى قلبي، حنون وخجول، ويجبر قلوب المنكسرين، ويشبه الملائكة في صفاء قلبه ونبل مشاعره.

تفرس "جيف" في وجهه البريء، وأحاطه بنظراته الحانية، ثم همس بابتسامة رقيقة:

- شرفت بلقائك يا "يوجين".

ابتسم "يوجين" بخجل، ورد تحيته بابتسامة خجولة تعكس خفقان قلبه:

- أنا من شرفت بك، سيد "جيف".

التفتت "بيرت" نحو "فوستن" بقامته القصيرة وعضلاته المفتولة، وافترت شفتاها عن ابتسامة رقيقة، ثم همست:

- وهذا..

قطعتها "هيلين" ورمقت "فوستن" بنظرة ساخرة، ثم صاحت بتهكم:

- .. وهذا طفلها المدلل "فوستن".

ضحك "جيف"، ومدّ يده إلى "فوستن" وصافحه، ثم صاح:

- مرحبا بك أيها الطفل المدلل.

ابتسم "فوستن"، وأجابه بنبرة صوته الجاد قائلًا:

- نعم أنا طفلها المدلل، وأحبها بكل جوارحي، فوجودها أجمل ما في حياتي، أراها بعينين بريئتين، خالية من الضغائن والأحزان، فجمالها ينعكس في روحي، حتى لو غطت أفعالنا في بعض الأحيان سماءها بغيوم قاتمة.

صمت الجميع حين أقبل النادل يحمل قائمة مشروبات ووجبات "دو لافيلت"، ثم دون ما طلبوه بخط أنيق، وانصرف، ليعود إليهم

مسرعًا حاملًا بين يديه قطعًا من الحلوى وأكوابًا من العصير. وفي خضم أجواء من السعادة والبهجة، وقفت "هيلين" وقد انتابتها قشعريرة غامضة، وانطبع على وجهها شجون عميق وحنين دفين، وتساءلت بنبراتها الممزوجة بالحزن:

- سيد "جيف"، هل ما زالت بلادي على حالها سقيمة؟

تلعثم "جيف" وتمعن في قسماتها الواجمة، واغتم من ذبول ضحكاتها، وخمود ثورة مرحها بين غياهب الحزن، ثم أجابها قائلًا:

- لم تعد سقيمة، بل تعافت من أوزار الماضي.

تأوهت وأسرت أحزانها وخوفها في أغوار أعماقها، وهمست بصوتٍ خفيضٍ:

- أحقًا بلادي جميلة؟ سيد "جيف".

استغرق "جيف" يحدق في أديم وجهها الرقيق، ثم أغمض عينيه، وهمس قائلًا:

- (رواندا) أسطورة عشق للحالمين بالحياة، وهامات تلالها تعانق عنان السماء، وتحضن تيجان الرباب المرصعة بالنجوم، وربوعها تشبه جمالك يا "هيلين"، وأنهارها تنبع من بحيرات حكمة "يوجين"، وحاضرها معبأ برائحة الياسمين الممزوجة برائحة الورد، ونسيمها العليل يراقص أنفاس "فوستن". وقد وأد أهلها الفتنة والقتل في بساتين طيبتهم.

وجل قلبها ولاحت في عينيها نظرة يأس، وأخذ الخوف ينخر في أعماقها، همست بصوتٍ خائفٍ:

- كم تمنيتُ ملامسة ترابها بجبيني، وكم تمنيتُ حضن هوائها بأنفاس روحي، لكنني خائفةٌ من ملاحقة جوارحها التي اقتاتت من جسد أمي.

ابتسم "جيف" ابتسامةً خافتةً، وحاول نزع الخوف من فؤادها الأسيف، فهمس يخاطب خوالجها:

- لا تخافي يا صغيرتي، هي جميلة وآمنة.

انتفضت من مكانها، وقد شعرت بضيقٍ يعربد بأنفاسها، وانهمرت دموعها وانسكبت على وجنتيها كالسيل، وندّت من فمها صرخةٌ مكتومة:

- أشباح الموت تُهاجم ليلي، وتُحاصرني بين جدران نفسي، حتى أنني أصبحت أخاف من العصافير، خشية أن تنهش جسدي.

تلاشى صخب الفرحة في أعماق "هيلين" وفاضت دموعها سيلًا صامتًا، تاركةً وراءها خيالاتٍ مشوهةً لبهجةٍ غابرة، وجثمت مرايا الحزن على قلبها، ونحرت آمالها على مذبح الفزع، نهض "يوجين" حاملًا على كتفيه ثقل أحزانها، وأزاح بيدٍ مرتجفةٍ ما تبقى من سدول الفرحة البالية، وهمست شفتاه بصوتٍ ممزوج بالألم، كأنه صدى لمعاناةٍ عميقة دفنها الزمن في أعماقه:

- سيد "جيف"، هل انتهت أوجاع أبناء أمتي؟

تنهد "جيف" من أعماقه، وحبس أنفاسه بداخل جدران ذاته، وارتسمت على وجهه تجاعيد العذاب، لتعكس مأساة (رواندا) التي لا تزال تُثقل كاهله، ثم تمعن في سحنة "يوجين"، وارتجف صوته حزنًا وألمًا وهو يهمس قائلًا:

- أتسعني جروحُ أرواحكم النازفة، لهدم أبواب ماضيكم المؤصدة، ومرافقتي في رحلةٍ عبر قصور آلامكم وأوجاعكم، لانتزاعكم وتحريركم من قبضة خوف الماضي.

صاحت "هيلين" في أسى، وأجابته، وقد تمكن منها القلق:

- لم تعد أقمار بلادي تغزل أحلامنا الغضة، لكنها باتت ترتق أوجاعنا بسنا تبرها الزائف.

تلعثمت "هيلين"، وتاهت الحروف بين شفتيها، وسيطر الفزع عليها. نهضت "بيرت" وهرعت إليها بخطوات سريعة، ثم ضمتها إلى صدرها، فاستسلمت للبكاء حتى تورمت عيناها، وبعد أن هدأت أنفاسها، همست بصوتٍ هادئٍ حزين، وهي تكفكف دموعها:

- كنتُ طفلةً صغيرةً في ربيعي السابع، لم أدرك معنى الحياة بعدُ، لكنني ما زلت أتذكر بوضوح ذلك المشهد المروع الذي حُفر في ذاكرتي.. عندما كنتُ جالسةً في أحضان غابة قريتي (نجوما)، وأنا أراقب أمي وهي ممددةً على الأرض، وقد حلَّ بها الموت، والجوارح تحوم من حولها كالغربان السوداء، وتنهش جسدها بوحشية، وكلما حاولتُ الاقتراب منها لألجأ إليها، تطاردني تلك الطيور الشرسة، وتجبرني على الهرب والاختباء بين الأعشاب الطويلة.

نظر "جيف" إلى أديم الأرض، وشفتاه ترتجفان في أسى:

- كلي أسف على ما جرى في (رواندا) يا "هيلين".
- لا تحمل نفسك عبء ما حدث في بلادي، سيد "جيف"، فما ذنبك فيما جرت به المقادير في ربوعها؟ فنحن البشر نحب الورد

ونتغزل في جماله، ورغم ذلك نقطفه وننثر عطره في أحضان الموت، فلا تبتئس بما فعله الطغاة في وطني.

لاذ "جيف" بالصمت، والتفت إلى "فوستن" وهو هائمٌ في صفحة الكون المظلمة يتأوه، وقد استبدت به ذكريات الماضي وسطت بظلالها المحزنة على أعماقه، وألقت به في سجون مأتمها، تنهش وتمزق أغواره المتعبة، وبعد برهة من الصمت همس متأذيًا من وطأةِ الحقيقة قائلًا:

- أما أنا أتذكر كل تفاصيل الماضي بكل قسوته، وكم آلمتني سخافات الحرب وكم سحقت أحلامي.

أغمض "فوستن" عينيه الدامعتين، ولاك في ذاكرته، قائلًا:

- كان أبي مستشارًا لوزير المالية "الرواندي" إبان الصراع القبلي، كان هوتيًا وطنيًا قوميًا معتدلًا، لا ينتمي إلى أيّ فصيل سياسي، سوى فصيل الوطن، كان ينكر ويمقت النعرات العرقية، وينبذ التعصب الأعمى، وكثيرًا ما كان يصرح ويقر أمامي بأنه لا يوجد فرق بين "الهوتو" و"التوتسي" كونهما أخوة وشركاء في الوطن. وعندما عمت الفوضى في ربوع (كيجالي) بعد اغتيال الدكتاتور "جوفينال"، هاجمت قوات الحرس الجمهوري منازل ومكاتب "التوتسي" والمعارضين "الهوتو"، لم يسلم أبي من تلك الهجمة الهمجية، اقتحموا مكتبه واحتجزوه دون سابق إنذار، على اعتباره معارضًا وخائنًا لا يناصر قضايا "الهوتو"، وبعد أن نهبوا كل محتويات مكتبه قتلوه بدم بارد. حينها تمكنت أمي من الفرار من بين أيدي القتلة، ركضنا في الأزقة الضيقة حتى وصلنا إلى بيت عمي "جورج" سائق أبي، ثم اتجهنا شمالًا بسيارته المتهالكة،

قاصدين قريته (كيبوي)، قطعنا القرى والمدن حتى انتهينا إلى شاطئ بحيرة "كيفو"، وقبل أن نصل إلى قريته فوجئنا بسيارة ذات دفعٍ رباعي تلاحقنا وتحاول الإمساك بنا، ارتبك عمي "جورج" وفقَد السيطرة على عجلة القيادة، انحرفت منه السيارة وسقطنا في البحيرة، حملتني أمي على ظهرها وقذفتني بكل قوتها نحو سطح الماء، وغاصت بجسدها رويدًا رويدًا حتى اختفت في أعماق البحيرة، التقطني عمي "جورج" من أحضان الموت، وغرقت أمي وسكن جسدها الطاهر قيعان الموت.

صمت "فوستن" وانقطعت أنفاسه، وتناقصت دقات قلبه من شدة الحزن، وانهمرت دموعه كالودق، وبعد برهة صاح في أسى:

- ماتت أمي ومنحتني الحياة، ماتت من تستحق الحياة، ماتت وفاح عطرها الزكي يخط على شطآن الموت مرثية غدر الإنسان لأخيه الإنسان.

صمت "فوستن" وتجلت في عينيه نظرات بغض وحقد، ثم تأوه وهو يردد:

- نضحك ونخبئ خلف ضحكاتنا آلاف الأحزان، ونمضي في دروب الوجع بخطى واثقة، لا نعلم كيف ننزع منبتها من أنفاسنا.

امتعض "جيف"، وصاح في أسى:

- إنها الحروب تهدم وتمزق أواصر الإنسان، ولا ترحم كبيرًا ولا صغيرًا.. الحروب تقتل الآباء، ترمل النساء، تيتم الأبناء.

نظر "يوجين" إلى "هيلين" و"فوستن" وهمس قائلًا:

- إن كانت الأحزان تسكن أعماقنا، والأوجاع والانهزامية تطحن ضحكاتنا وتمحقها وتذريها في أمواج العدم، حتمًا دموع القلب سيمحوها النسيان، وسيمحو ذكريات قتل وذبح إخوتي وصغار أمتي، هكذا هي الحياة تمضي بأفراحنا وأتراحنا بلا توقف.

أخذ "يوجين" يتنفس الصعداء تارة، ويتأوه تارة أخرى، تعلقت الوجوه بقسماته الدامعة، حين وقف فاردًا أشرعة حياته، وهو يصح في الجميع قائلًا:

- حان وقت مثولي بين أيديكم على خشبة مسرح الحياة، وتمثيل دوري، واقتلاع دموعكم من منبتها، واطلاعكم على معاناة طفل فقد الأب والأم والأخت، فقد الوطن، وحضنته يد القتلة الملطخة بدمائه، ورأفت بحاله، وحاولت نزع ذكرياته المؤلمة ومحوها من أعماقه، وهأنا أضحك تارة وأبكي طورًا.

أومأ "يوجين" برأسه إليهم، وأشار إلى "جيف"، ثم همس قائلًا:

- سكوت.. سيفتح ستار المسرحية الهزلية على مشهدها الأول.

يندمج "يوجين" في التمثيل، ويصيح:

- تغطى خشبة المسرح بالكثير من جثث النساء والأطفال، والنذر القليل من جثث الرجال، ومن حين إلى آخر تظهر أشباح الموت تعربد بأجساد الضحايا حرقًا وشنقًا وذبحًا واغتصابًا.. فجأة يظهر طفل صغير، يتوارى بين الجثث، وهو يبكي ويصرخ.

صمت "يوجين" وأحدج في دموعهم، ثم صاح:

- تريثوا قليلًا ولا تهدروا دموعكم، فصول المسرحية لم تبدأ بعد، فهي فيها الكثير والكثير من المآسي والحكايات المبكية.

وقفت "هيلين" في وجهه، وصاحت تترجاه، صمت، وتلعثم لسانه، ثم هرول إلى "بيرت" وارتمى في أحضانها وانهمر في بكاء مُرّ، دثرته بعطفها الحنون، انتفضت "هيلين" وتبعته برفقة "فوستن"، وحاولوا جميعًا وأد أحزانه.. تنفس "يوجين" بشهقاتٍ متقطعة، وكادت أنفاسه تنقطع، دعكت "بيرت" ترائبه بلطفٍ حتى هدأت أنفاسه، فشرع في استكمال حكايته، قائلًا:

- في يوم قاتم كأنه ليل لم يُشرق عليه فجر..

قاطعه "جيف" قائلًا:

- يا بني، لا تغرقنا في مقاصل الحزن، ودعنا نسامر دروب الحياة الجميلة.

ابتسم "يوجين" ابتسامةً حزينةً، ثم همس بصوتٍ خافتٍ كأنه يناجي نفسه:

- أرجوك دعني أنفث نيران حزني من فوهة بركان الماضي، لعلي أخفف وطأة ثقل أحزاني.

أومأ "جيف" برأسه إجلالًا لمشاعره.. تنهد "يوجين"، ثم همس يسرد حكايته بصوتٍ مأساوي:

- هزّ هديرٌ من الصراخ والعويل أرجاء ساحة قريتنا الصغيرة، فهرعت أمي إلى "وصواص" الباب تستجلي حقيقة الأمر، ثم عادت أدراجها ترتجف وتصرخ في وجهي: "خذ "سارة" و"نيانا" واختبئوا فوق سطح البيت".. تسمرت مكاني وارتعشت أطرافي الغضة، زجرتني لعدم انصياعي لأمرها، استسلمت لرغبتها وصعدت مع "سارة" و"نيانا" إلى سطح البيت، واختبأنا في عشة

ألعابنا، وانعزلنا عن العالم وعما يجري من حولنا، نامت "نيانا"، وظلت "سارة" تسامرني حتى غاصت هي الأخرى في سبات عميق.

تمكن الخوف مني، فكلما وصل إلى سمعي صراخات وعويل، تتسمر عيني على باب العشة، أترقب بحذرٍ ماذا سيحدث، فجأةً، سمعتُ دبيب أقدامٍ بالقرب مني، سرى الخوف في زوايا جسدي وتجمدت خفقات قلبي الصغيرة، حاولت استجلاء المجهول من خلال ثقوب الأغصان الجافة، حتى هدأت أنفاسي المذعورة حين رأيتُ أمي، هرولتُ إليها، فأخذتني من يدي وعدنا معًا إلى العشة، ثم جلست بجواري هائمة غائمة الوجه، وقد انعقدت في عينيها حمرة البكاء، التفت إليها أستجلي أمرها أخذتني بين ذراعيها وربتت على كتفي، وظلت صامتة، دون إعطائي فرصة لسؤالها عن أبي، وعما يجري.

التقط "يوجين" أنفاسه، يستجمع قواه، واستطرد حديثه في حزنٍ قائلًا:

- وفي هجوع الليل نهضت أمي من جواري، وأيقظت "سارة" و"نيانا"، ثم جمعتنا حولها وطلبت منا اتباعها في صمت وحذر، وأن نبقى بالقرب منها، ثم عهدت لي بيد "سارة" وطلبت مني عدم مفارقتها.

تسللنا من فوق سطح البيت خلسة إلى غابة القرية القريبة، ثم ركضنا في دروبها وأحراشها المظلمة، وأنا أسأل نفسي في حيرة، لماذا نهرب؟ وإلى أين المفر؟

ظلنا نركض ونهرول دون توقف حتى وصلنا إلى مشارف قرية (بوتاري) المجاورة لقريتنا، فجأةً، دوى صراخ مئات الفارين والهاربين من مختلف الاتجاهات، اطمأن قلبي بعض الشيء، وهرولنا بين أقدامهم ببطء حتى دخلنا جميعًا أحراش وغابات (بوتاري)، جلسنا نلتقط أنفاسنا، فسألت أمي بمرارة: أين أبي يا أُمَّاهُ؟! لم تجب، دنوت منها لأجدها تبكي، سألتها مرارًا، لكنها ظلت صامتة وغارقة في دموعها، توسلت إليها أن تجيبني، لكن دون جدوى، فجأةً، انهالت علينا هجمات وحشية غادرة من كل حدب وصوب ومزقت أجسادنا بالهراوات والمعاول والسكاكين والسواطير، هرعت مذعورًا، وأضعت يد "سارة".

اختبأت خلف جذوع الأشجار، حتى انطفأت الصرخات من حولي. تسللت بخطى حذرة أبحث عن أمي، جدتها ملقاة على الأرض. جثوتُ على ركبتي، ولامست جسدها المتخشب، ثم هرولت أبحث عن "سارة" و"نيانا"، حتى وجدت جثمان "نيانا" مُمددًا في بركة من الدماء. وثبتُ كالمجنون وأنا أحدج في يديّ الملطختين بالدماء، انتابني الفزع والرعب. تركت جثمان أمي وأختي من ورائي، وهرعت إلى أعماق الغابة المظلمة، ثم استلقيت على ظهري عند جذع شجرة أكفكف دموعي النواحة. فجأةً اشتعلت نيرانٌ مستعرة في أطراف الغابة. هرولت أستجلي الأمر، فإذا بالقتلة الفجرة يضرمون النار في جثامين الضحايا وفي أجساد الأحياء. تعالت صرخات الأحياء الملطخة بدماء الموت. حينها شعرت بنار الحزن والغضب تتأجج وتشب في قلبي. ركضت إلى أعماق الغابة، حتى أهلكني التعب وأغماني.

وفي الصباح تفتحت عيناي على وهج الشمس المحرقة، نظرت من حولي بنظراتٍ مشتتة. انتفضت من مكاني مفزوعًا، حينما رأيت الجثث الباردة ملقاة من حولي. ارتعدت أوصالي، وهممت بالهروب من

الغابة، لكني سمعت أنين طفلة. تجاهلت خوفي وانشغلت بالبحث عنها، شملت المكان بنظراتي الزائغة المتعبة، حتى وجدتها عند جذع شجرة، تحلق وتحوم حول جثة امرأةٍ متخشبة من الموت. هرعت إليها وأخذتها معي ومضينا معًا في غياهب المجهول.

نظر "يوجين" إلى "هيلين"، وهمس قائلًا:

- وها هي "هيلين" الطفلة الباكية التي صاحبتني طوال مشوار حياتي، وعوضتني فقدان "سارة" و"نيانا".

علا وجه "يوجين" الممتعض مسحة رضا، فأنشد قائلًا:

- لمست أنين الألم بداخلي، وناحت أوجاع قلبي ونضبت بحور أفراحي، وتورعت إلى قدري أن يعيد ما كان في غابر الأزمان من أحبة وخلان، كانوا للروح أنفاسي، وكم تمنيت أن أغبر وجهي بين نهديك يا أمي، يا جميلة القد والمعنى، "روهندا" أنت والجنة بنفس القدر والمعنى، حضنتِ أبي "موليسا"، فأزهرتِ لنا شقاوة "نيانا" شبيه الياسمين، وهدوء "سارة" وحسنها الطارح بأحلام العصافير.

فجأة، تجلت علامات الحيرة والدهشة على قسمات "جيف"، وبدا له الأمر برمته عجيبًا وغريبًا. تمتم يحاور ذاته، كأنه فقد صوابه:

- لا، مستحيل!!

أرهقته الهواجس والظنون، ونالت من راحته، وأغرقته أنواء الحيرة، فصاح يستغيث بالسماء:

- يا لله، هذا مستحيل.

انتابته حالة من التخبط، فطاف حول الطاولة بلا وعي، محاولًا إسكات صرخات ذاته المكبوتة، لكنها أبت، صاح يردد:

- أهي أضغاث أحلام؟! أم هي عادلة السماء؟! أنا لا أصدق.. لا أصدق.. لا أصدق.

هرع وجلس على طاولة أخرى، وظلّ يصرخ ويصرخ:

- لا.. لا.

تشنجت أوصاله، وغامت قسمات وجهه، واغرورقت عيناه، وانهمر في البكاء. هرع "ويليام" إليه، وأشار إلى "بيرت" و"يوجين" و"هيلين" و"فوستن" بالبقاء بعيدًا، حتى يستجلي حقيقة أمره. دنا منه، ثم أمسك به، وسأله في حيرة:

- ماذا ألمَّ بك يا "جيف"؟

لم يعره أيّ اهتمام، وظلّ يهذي كالمجنون، ثم ترك المكان برمته وركض خارجه. تعقبه "ويليام"، حتى وجده داخل سيارته يفتش في حقائبه. وبعد أن انتهى من العبث في محتويات سيارته عاد باكيًا، ثم جلس على طاولته وحيدًا، وهو يحمل بين يديه جهازه اللوحي. فتحه وانهمك بالبحث في ملفاته، حتى عثر على صورة "روهندا"، نسخها على سطح المكتب، وبدأ يمعن ويحدق النظر في ملامح "يوجين" ثم يعاود النظر في صورة "روهندا". اقترب "ويليام" منه، وحاول استجلاء ما يدور في عقله، لم يمهله الفرصة وهرول صوب "يوجين"، وجلس بجواره وسأله بغتة، كأنه يحقق معه:

- أأنت "يوجين موليسا"؟

نظر "يوجين" إليه باستغراب، وشعر بالحرج، لكنه أجابه بتأدب:

- نعم، أنا "يوجين موليسا".

حاول "جيف" تخفيف حدة وطأة الموقف، فابتسم، ثم همس قائلًا:

- ستنجلي الغمة عما قريب، أرجوك أجبني وحسب.

تحير "ويليام" و"بيرت" من تصرفات "جيف" غير اللائقة، لكنهما حثًّا "يوجين" على الامتثال له ومجاراته في الحديث. تنهَّد "يوجين"، وهمس قائلًا في هدوء:

- تفضل اسأل ما شئت.

قلب "جيف" في جهازه اللوحي وسأله:

- أتتذكر اسم قريتك؟

تأفف "يوجين"، لكنه همس قائلًا:

- (نجوما).

وما اسم والدتكِ؟

- "روهندا".

- أتتذكر أسماء أصدقاء والدكَ المقربين؟

تنهد "يوجين" من أعماقه، وأجابه قائلًا:

- أتذكر العم "كابوجا"، صديق أبي المقرب.

وقف "جيف"، وصاح بأعلى صوته:

- يا الله.. يا الله.

أدركت "بيرت" ما يرنو إليه "جيف"، وشاركها "ويليام" نفس الحدس، انهارا في البكاء. ازدادت حيرة "يوجين" و"هيلين" و"فوستن"، وغاصوا في بحر من الغموض. هرع "ويليام" نحو "جيف" يرتجي راحة ضميره، كأنه وجد طوق نجاته من أوزار الماضي، بكى بكاءً مرًا، وارتمى على كتفيه باكيًا مستبشرًا ومفعمًا

بالأمل. في الوقت ذاته، ركضت "بيرت" نحو "يوجين" وارتمت في أحضانه. احتار "يوجين" من تصرفاتهم الغريبة، فاندفع نحو "جيف" وتوسل إليه يستجلي الحقيقة:

- أرجوكَ، سيد "جيف"، لا تلقني في وهدة الحيرة، فأنفاسي متعبة من خفقات قلبي، وتوشك على تمزيق ضلوعي.

تنهد "جيف"، ومسح أطراف دموعه، ثم ربت على كتفه قائلًا:

- يا بني، إن أقصر الطرق للوصول إلى الحقيقة هو أصدقها. فالأقدار وحدها تقدر على صنع ما يخالف نواميس البشر. انصت إليّ جيدًا، سألقي عليك حديثًا عجيبًا ومثيرًا، سيغير مجرى حياتك للأبد. فأثناء وجودي في (رواندا) زرت قرية (نجوما)، وأوصاني أهلها بمقابلة سيدة تدعى "روهندا" كونها رمزًا للشجاعة والحكمة والصبر. حينها سعيت جاهدًا لمقابلتها، لكنّها كانت مريضة في مستشفى "كيجالي" العسكري. وبعد طول انتظار، حظيتُ بمقابلتها، فسردت لي قصتها التي تتطابق مع قصتك.

دنا "يوجين" من "جيف" وأمسك بيديه وقبلها، وتوسل إليه كطفل تائه، وتأتأ بكلمات مبتورة:

- أمي لا زالت على قيد الحياة.

اقتربت "بيرت" و"هيلين" من "يوجين" وأخذتاه وأجلستاه على أقرب كرسي. اقترب "جيف" منه، وسأله:

- هل تتذكر ملامحها؟

أجهش بالبكاء، وأومأ إليه بالإيجاب. فتح "جيف" جهازه اللوحي، وأطلعه على صورتها، انتفض "يوجين" من مكانه وهو يصرخ:

- إنها أمي.. إنها أمي "روهندا".

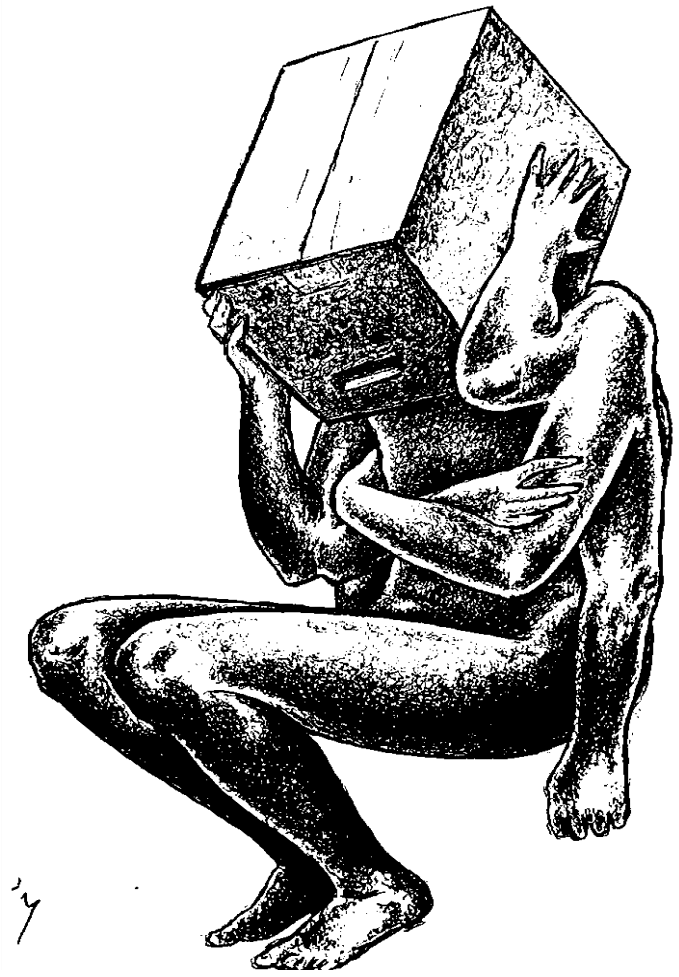

١١

وقف "جيف" أمام مكتبته المكتظة بالكتب، وفكره غارقٌ في صراعه الدائر بين الخير والشر، ومشاعره منشطرة بين قسوة المغتصب وغطرسته، وضعف الضحية وقلة حيلتها. وقف يتأمّل رفودها بنظراتٍ زائغة، وهو يبحث في المراجع عما يساعده في إنجاز مهمته، حتى عثر على مرجعٍ في القانون الدولي. سحبه من بين الكتب، ثم جلس خلف مكتبه الفوضوي، المُكدّس بالأوراق والصور. شرع في ترتيبها ورصّها فوق بعضها البعض. وبعد أن انتهى من ترتيبها، نزع قلمه الفضي من تمثال "تيميس" النحاسي المرابط على حافة المكتب، ثم انصرف بكلّ جوارحه انصرافًا تامًا، وانكبّ على تدوين مقدمة تقريره عن دور بلاده في مجزرة (رواندا)، ولا همّ له إلا إنجازه على الوجه الذي يُرضي ضميره. ذاب في مخاض قلمه، وهمس بصوتٍ خافتٍ:

- هممتُ بالانتهاء من تقريري عن تدخل (فرنسا) في مستنقع الدم "الرواندي"، وهأنا اليوم أكشف زيف سياسة بلادي الملتوية، وأمزق خيوطها الواهنة المُلطّخة بأكاذيب حماية مصالحها على رقاب الأبرياء.

هام "جيف" على وجهه واستبدّ به القلق، ثم همس بصوتٍ حائرٍ:

- سيدي الرئيس، أجبتُ نداء الوطن برحابة صدرٍ، وأقبلتُ عليه بيقينٍ يملأُ أعماق عقلي برجاحة صنيع ساسة بلادي، فلمَ لا! وهم مَشاعلُ الحرية والديمقراطية، وهم من خطّوا بأيديهم قوانينَ العدل التي أنصفت الضعفاء والمقهورين في بني الإنسان؟!.. سيدي الرئيس، لا أخفيكَ سرًّا بما يجولُ بخلجاتي الآن، بعدما تقيّحتْ

جروح سهام الغدر والخسة المغروسة في فؤادي النازف بالأوجاع، أن نظرتي للمجتمعِ "الفرنسيّ" بكلّ قيمه الأخلاقية والإنسانية قد تغيرت. فكيف لهذا المجتمع حينذاكَ تقبّل فكرة قتل الأطفال والنساء في (رواندا)؟ وكيف خنع ورضخ طواعيةً لأكاذيب طغاة ساسة بلادي في إعادة أمجاد (فرنسا) العظمى، ووقفَ المدّ "الأنجلوسكسوني" في (أفريقيا)؟

طغى الغضبُ عليه وتجبرّ، فصاح متسائلًا:

- كيف؟

ارتشفَ رشفةَ ماءٍ، واستطرد يدوّنُ ويصيحُ:

- سيدي الرئيس، من الصعب فقدانُ الأمل في الحياة، ومن الصعب أيضًا الحفاظُ على قيم الأخلاق الإنسانية، ونحن نرى قصور الظلم تُبنى على أنقاض الفضيلة. وها أنا أحاولُ ترميم ذاتي والتخلّص من مشاعر الحزن التي أصابتني وعكرت صفاء نفسي طيلة الخمسة أشهر الماضية. وها أنا ما زلتُ أحاولُ وأحاولُ استعادة "جيف" القويّ المتمرّس على مواجهة دروب الظلم، لكن كيف أستعيده؟ وقد تبعثرتْ أشلاءُ قوتهِ بين أقدام الضحايا الذين رهسوا ضعفَهم ورمسوها في قلوبِهم، وأخذوا بيدي من ظلام وظلم بلادي إلى ساحات المحبة والغفران.. سيدي الرئيس، سألُخِّص وأُجَمِّل هذا التقرير الشامل، الذي تجاوزت صفحاتُهُ الخمس ألف صفحة، في مقدمة مختصرة، وسأعرجُ سريعًا على أبرز ما توصلتُ إليه من نتائج مقرونةً بأدلة قاطعة، وفي نهايته سأضعُ بعض الحلولَ الممكنةَ بين أيديكم لتجاوز تلك المحنة الإنسانية بندباتها المخجلة، بكل ما حملته من آلام ومعاناة.

صمت "جيف"، وشذر في صورته الملاصقة لتمثال "تيميس" النحاسيّ. تذكّر لحظةَ مصافحة الرئيس الفرنسيّ "فرنسوا ميتران" خلال زيارته لجامعة "باريس"، امتلأت نفسه ضيقًا، تحسّس ملابسهُ كالمجنون بحثًا عن شيء ما، فتح الجارور بعنف وأخرج منه علبةَ سجائر وأشعل واحدةً، وأخذ يسحبُ من أرواحِها بعمق وينفثها في أفق مداهُ حتى انتشر دخانها الكثيف من حوله وفي أفقه، وحال بينه وبين صورته. انتهى من سيجارته، طمرها في المرمدة المترعة بأعقاب السجائر، ثم عادَ يدوّنُ ويهمسُ قائلًا:

- العدلُ والمساواةُ والديمقراطيةُ وحقوقُ الإنسان، مفاهيمُ فضفاضةٌ وخداعة نمارسُها في مجتمعاتِنا ونفتخرُ بها، لكننا في الوقت ذاته نعرقلها ونضعُ لها ألفَ فخٍّ ومتراسٍ أمام ممارستها في المجتمعات الفقيرة، حتى نجد لأنفسنا ألف مبرِّرٍ ومبرّرٍ لنتدخّل في شئونها متى شئنا.

تركَ "جيفُ" قلمه الفضيّ من بين أنامله المرتعشة. حاول التقاطَ أنفاسه المتعبة، وأخذ يتحسّسُ عنقهُ كأنّه يحاول تخفيف وطأة حبل مشنقة وهمي. تخلّص من وجومه، واستغرقَ برهة في صمته، ثم مضى يدوّن ويصيح في آن واحد:

- سيدي الرئيس، عاشت (رواندا) في سلام دام مئات السنين، رغم تباين انتماءات أفرادها. وبمجرد أن وطئت أقدام المستعمر الأوروبي ترابها في أواخر القرن التاسع عشر، أصبح هذا السلام مهددًا بالزوال، حينما تبنى المستعمر الأوروبي نهج "جون سبيك" وفرضيته الزائفة.

افترت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم همس بصوت غاضب:

- عبث "البلجيك" بتركيبة المجتمع "الروانديّ"، وانتهجوا سياسة التفرقة والتمييز بينَ أفراده، وأشعلوا فتيلَ الفتنةِ بينهم، وعملوا على تغذيتها وتعظيمِها، حتى اتّسعتْ الفجوةُ بينَ "الهوتو" و"التوتسي"، ولاحتْ راياتُ العنفِ الطائفيّ ترفرف فوقَ تلالِ أرض الألف تلة.. وبعد أن نالتْ (رواندا) استقلالَها المخضّبَ بالدماء، تم تنصيب "جريجوار كايباندا" رئيسًا منتخبًا للجمهوريةِ "الرواندية" الجديدةِ، وبدأت معه حقبة جديدة من الاضطهاد والعنف، وخلال فترةِ حكمهِ، ساءتْ الأحوالُ الاقتصاديةُ، وشهدتْ البلادُ موجةَ عنفٍ شديدةً ضدّ "التوتسي"، فانقلبَ وزيرُ الدفاعِ "الروانديّ" "جوفينال هابياريمانا" على "جريجوار" وهيمنَ على مقاليدِ الحكمِ.

نهض"جيف"، وهرول مسرعًا إلى خارج مكتبه، وبعد برهة عاد يحمل فنجانًا من القهوة، ثم جلس خلف مكتبه، أشعل سيجارة، وارتشف معها قهوته، ثم اندمج مرة أخرى في كتابة تقريره، وهمس بصوتٍ خافتٍ تارة، وغليظ تارة أخرى:

- في هذه الأثناء، فقدت (فرنسا) معظم وجودها الإمبريالي في وسط (إفريقيا)، وبدأ المدّ "الأنجلوساكسوني" يحل محلها ويتوغل في كامل القارة السمراء، حينئذٍ وجد الرئيس الفرنسي "فرانسوا ميتران" ضالته في الجنرال المستبد "جوفينال" لتعزيز مصالح بلاده الجيوسياسية، وعودة وجودها الإمبريالي في المنطقة، فتحالف معه ووقع اتفاقية دفاع مشترك تسمح لـ(فرنسا) بإرسال قوات عسكرية إلى (رواندا)، ومع مرور الوقت ازدادت وتيرة العنف بين قوات الجيش "الرواندي" و"الجبهة الوطنية

الرواندية"، بعدما تنصّل "جوفينال" من كافة عهوده، بدأ لاجئو "التوتسي" بشنّ هجمات انتقامية على الأراضي "الرواندية"، استهدفوا فيها المدنيين والمصالح "الهوتية"، استنجد "جوفينال" بـ(فرنسا)، التي أغدقت عليه المال والسلاح من أجل نصرته، وتمسكًا بمصالحها الجيوسياسية والإمبريالية، ولم تكف عن دعمه طيلة فترة الصراع، ماديًا ولوجستيًا وعسكريًا، بل مدّته بشحنات أسلحة بملايين الدولارات.

تنهد "جيف"، واستطرد همهماته هامسًا:

- في هذه الأثناء، بلغت الحرب الأهلية "الرواندية" نقطة اللاعودة، حينها دقت البعثات الدولية المتواجدة في (رواندا) ناقوس الخطر، محذرة من احتمال قيام الطاغية "جوفينال هابياريمانا" بارتكاب مجازر إبادة جماعية بحقّ الأقلية "التوتسية"، لم تكتفِ هذه البعثات بهذا التحذير فحسب، بل أرسلت تقاريرها إلى كافة الجهات الضالعة في الصراع "الرواندي"، لا سيما الرئيس الفرنسي "فرانسوا ميتران"، باعتباره الوحيد القادر على وئد أي مجازر في مهدها، لكنّ الرئيس "الفرنسي" تجاهل هذه التحذيرات الخطيرة.

تساءل "جيف" بصوتٍ جهوريٍ يملأه الغضب:

- هل كان بإمكان بلادي وقف هذه المجازر التي أدّت إلى قتل مئات الآلاف من الشعب "الرواندي"؟

أجاب "جيف" على نفسه بشيء من الأسى والحسرة، قائلًا:

- للأسف، كان بوسع ساسة بلادي وقف هذه المذابح، أو على أقل تقدير تخفيف حدة خسائرها! نعم، كان بوسعهم وقف بحور الدم،

لكنّهم غضّوا الطرف عما كان يجري في سفوح تلالها لانعدام ضمائرهم.

صاح "جيف" قائلًا:

- اغتيل "جوفينال هابياريمانا" من جراء أوزاره، ولُفِّقت تهمة قتله عمدًا إلى الأقلية "التوتسية"، لتكون ذريعة لشن حملة إبادة جماعية ضدهم، وعلى مدار مئة يوم تعرضوا لأبشع أنواع العنف والانتقام، التي تسببت في مقتل مئات الآلاف من الأبرياء واغتصاب معظم نسائهن.

تهكم "جيف"، وصاح بسخرية:

- وأثناء تلك المجازر المريعة، لم يكف ساسة بلادي عن اللعب بالنار أو التخلي عن أحلام الماضي، فأقدموا على تنفيذ ممر إنساني في جنوب شرق (رواندا)، ظاهره مساعدة اللاجئين وترحيل الأجانب من مناطق النزاع إلى مناطق آمنةٍ، وباطنه مساعدة قادة وجنود الجيش "الرواندي" وأفراد مليشيا "الإنتراهاموي" الضالعين في المذابح والإبادة على الهروب إلى دول الجوار.

نظر "جيف" إلى سقف الحجرة وقد تبللت وجنتاه بالدموع، ثم انكب بنظره في أوراقه يدون ويردف بصوتٍ باكٍ:

- سيدي الرئيس، حتى هذه اللحظة، لم أستوعب دوافع تعارك أبناء الأمة الواحدة، وتحول هذا العراك إلى صراع دامٍ، ومن ثَمَّ تحوله إلى إبادة جماعية، راح ضحيتها ما يقرب من مليون نفس بريئة، وما جعلني أكترث لاستكمال مهمتي رغم قسوتها؛ هو مقدرة هؤلاء الضحايا على تحمل معاناتهم، والتعايش معها، ومحاولتهم

الحثيثة للتخلص من مألات الخوف، والركوض نحو معابر السلام النفسي.. وختامًا أقولها بملء فمي أن بلادي تتحمل وحدها مسئولية ما جرى من سفك دماء الأبرياء في (رواندا)، إذ كان بمقدورها وقف نزيف هذه الدماء البريئة.

انتهى "جيف" من كتابة تقريره، ثم طوى دفتره، وأغمض عينيه الغارقتين في الدموع، وبعد برهة نهض من مكانه بجسده المهدوم، ومضى إلى حجرة نومه، ثم انطرح على فراشه، وغاص في سباته العميق، تشابكت أحلامه الغضة مع كوابيسه المزعجة: ما بين ضحكات "روهندا"، وبين محاولات هروب "هيلين" من أنهار الدم المتفجرة من تحت أقدامها، وهي وتصرخ في وجهه: "أنت قاتل.. أنت قاتل".

انتفض "جيف" من نومه مفزوعًا وهو يصرخ بلا وعي:

- أنا بريء.. أنا بريء.. بريء.

عاد "جيف" إلى نومه الواجف، وفي الصباح استيقظ من نومه ضائقَ النفسِ، نهض من فراشه وهو يمعن النظر في عقارب ساعة يده التي اقتربت من الثانية عشرة ظهرًا، دلف إلى الحمام مسرعًا، ثم عاد إلى غرفته يرتعد من شدة الصقيع، بدل ملابسه، ومضى إلى مكتبه يلَمِّلِم أوراقه ومستنداته، وبينما هو يودع أغراضه في حقيبته ارتطمت يده بصورته مع الرئيس الفرنسي "ميتران"، فسقطت على الأرض وتحطمت، وتناثرت أشلاؤها على صعيد الحجرة، انفجر في الضحك وهو يهمس ساخرًا:

- أزال القدر القبحَ من غرفتي، وهأنا سأسعى بكلِّ قوتي اليوم لإزالة القبحِ عن أمتي.

جلس "جيف" خلف شرفته، يرتشف كوبًا من الشاي الدافئ، هزّت دقات ساعة الحائط سكون المكان معلنةً عن حلول الساعة الرابعة عصرًا، انتفض من مكانه وهرول إلى المرآة، وارتدى زيه الرسمي، واختار ربطة عنق أنيقة تُضفي لمسة من الرقي على مظهره، ثم حمل حقيبة أوراقه، وانطلق في طريقه نحو مبنى وزارة الخارجية، حاملًا معه آمالًا وأحلامًا عريضة.

وصل "جيف" إلى مبنى وزارة الخارجية، وقف أمام أسوارها العالية، شعَر برهبةٍ تُخيم على قلبه، تنهد تنهيدةً طويلة، ثم اتجه نحو بوابتها الرئيسية، دلف منها وصعد بضع درجات، حتى وصل إلى بهوها الفسيح، نظر من حوله بنظراتٍ مُترقبة، ثم اتجه مباشرةً نحو موظف الاستعلامات، سأله عن مكتب الشئون الإفريقية، أرشده بروح مرحة.. اتجه "جيف" صوب المصعد، وصعد إلى الطابق الثاني، ومضى عبر رواقٍ طويلٍ مُزينٍ بلوحات فنية كلاسيكية، حتى وصل إلى مبتغاه.

وقف أمام باب مكتب السفير "هنري بستير" مستشار الرئيس الفرنسي للشئون الأفريقية، تردد قليلًا، لكنه حسم أمره وقرع الباب، ثم دخل إلى مكتب السفير وسأل مديرته، قائلًا:

- السيد "هنري" موجود؟

قابلته "إلينا" بابتسامتها الرقيقة، ثم أشارت إليه بالجلوس، وبعد برهة نادت عليه، وهمست قائلة:

- تفضل سيدي، وأخبرني كيف أساعدك؟
- لدي موعد مسبق مع السيد "هنري".
- من فضلك، هل بإمكاني الاطلاع على بطاقة هويتك الشخصية؟

تفحصتها بعناية، ثم حَلّقت بنظرها على اسمه في دفتر المقابلات قبل أن ترفع رأسها وتمنحه ابتسامة خجولة، قائلة:

- نعتذر سيد "جيف" لعدم وجود موعد محدد لك اليوم.

ابتسم "جيف" ابتسامة ساخرة، ثم همس بتأدب قائلًا:

- من فضلك، أبلغي السيد "هنري" بوجودي، فالأمر لا يحتمل الانتظار أو التأخير، وهو على علم مسبق بقدومي.
- على رسلك يا سيدي "جيف"، أنا لستُ مخولةً بإبلاغ السيد "هنري" إلا بمواعيد اليوم فقط.
- اعلمي أن الأمر عاجل وبالغ الأهمية.

تجاهلت إلحاحه، وتجهمت سحنتها وتبدَّلت ابتسامتها الرقيقة إلى عبوس، تأفف "جيف" من طريقتها التي لا تليق بمكانتها، فصاح بضجر:

- للمرة الأخيرة أخبري السيد "هنري" بوجودي، وإلا..

خرج السيد "هنري" من مكتبه بقامته القصيرة وجسده الممتلئ، ليتفقد مصدر الضجيج، وما إن رأى "جيف" حتى أسرع إليه وصافحه، وأمسك بذراعه ودخلا معًا إلى مكتبه، وهو يصيح في "إلينا":

- الاجتماع مغلق.

نظرت "إلينا" إلى "جيف" بخجل، ثم أجابت السيد "هنري" بصوتٍ خفيضٍ:

- أمرك سيدي السفير.

دفع السيد "هنري" "جيف" أمامه بخطواتٍ حثيثة نحو طاولة اجتماعاتٍ هادئةٍ في ركنٍ قصي من مكتبه الفسيح، ثم همهم بصوتٍ مبحوحٍ مرحبًا بـ"جيف":

- مرحبا بكَ أيها النبيل.
- مرحبا بكَ سيدي السفير.

صمت السيد "هنري" برهة، ثم همس قائلًا:

- هل تودّ مشاركتي كوبًا من الشاي؟
- شكرًا، سيدي السفير.

تنهد السيد "هنري"، ثم أردف قائلًا:

- إذن سأدخل في صلب الموضوع مباشرةً، فعندما أخبرني سيادة الرئيس عن نيته بزيارة (رواندا)، انتابني شعور من القلق حول رد فعل الشعب "الرواندي" من هذه الزيارة، لذا خطرت ببالي فكرة الاستعانة بشخص أمين، يتمتع بقيمٍ إنسانية وأخلاقية نبيلة، ولديه شخصية قوية، وصادق في مشورته، للقيام بزيارة (رواندا) وتقديم تقريرًا مفصلًا عنها، وعن مدى تقبل الشعب "الرواندي" لهذه الزيارة، وعندما رشحوا لي قائمة طويلة من الأسماء، أجريت بحثًا دقيقًا واستبعدتهم جميعًا، ووقع اختياري عليكَ أنتَ سيد "جيف".

سأله "جيف"، بتعجب شديد:

- ولِماذا اخترتَني أنا تحديدًا؟

سعل السيد "هنري"، ثم ابتسم قائلًا:

- بكل بساطة، لأنّني أُؤمن بأنّ الشخص الذي يحمل بداخله إنسانية، ويحمل بين جنباته فطرة سليمة، يستطيع تجاوز تحديات الحياة

مهما كانت صعبة، وأنت سيد "جيف"، تحمل الكثير والكثير من الإنسانية غير المشروطة بأي هدف أو مأرب.

رف بعينيه، ثم أردف قائلًا:

- أتعي ما أقصده سيد "جيف".

زاغ "جيف" ببصره، وانقبضت قسمات وجهه، ثم همس بصوتٍ مشتتٍ:

- اعذرني سيدي السفير، الأمر أكثر تعقيدًا مما تتصور، فصرخات الضحايا تقلق مراقد أهل الأرض جميعًا.

تنهد السيد "هنري" ثم ابتسم ابتسامة ماكرة، همس يردف بهدوء وروية:

- أنا لا أفكر إلا في حاضري، ولا أنظر إلى الماضي، حتى لا أتَعَثَّر في فخاخه، لذا أخبرني سيد "جيف" عن انطباعك عن الشعب "الرواندي"، وهل نحن مدينون له بالاعتذار؟

تهكم "جيف" وافترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، ثم أمسك بحقيبته وفتحها، وأخرج منها تقريره الضخم، وقدمه إلى السيد "هنري"، قائلا:

- ستجد كل ما تبحث عنه هنا سيدي السفير، وأتمنى العمل بتوصياته، حتى لا نضطر إلى الاعتذار فحسب.

تفاجأ السيد "هنري" بضخامة حجم التقرير، التقطه بيديه الهرمتين، وكاد يسقط من بينها، لكنه تمكن منه والإمساك به بصعوبة، وضعه على مكتبه قائلا في دهشة:

- كل هذا سيد "جيف"؟!

تهكم "جيف"، وأجابه بغلظة:

- هذا بعض ما وجدته في (رواندا)، سيدي السفير.

ربت "هنري" على كتفه، وهمس بصوتٍ خفيضٍ، قائلًا:

- أرجوك دعنا من هذا التقرير، وأخبرني عن انطباعك الشخصي، فأنا متشوق لمعرفته.

صمت "جيف" برهة، ثم نظر إليه قائلًا:

- أنه النفاق السياسي بعينه، سيدي السفير، حين يخطط قائدٌ منعدم الضمير، ومتعطشٌ للسلطة، ولا يهمه سوى تحقيق أهدافه، ويتخلى عن مبادئه وأخلاقه، ويمزج خططه بالغدر والخسة والخيانة، ويستخدم كل الوسائل، المباحة وغير المباحة، لتحقيق غاياته دون النظر إلى خسائر ضحاياه.

أغمض السيد "هنري" عينيه وظل يفكر جيدا قبل مجاراته في الحديث، وبعد برهة صاح فيه بغضب:

- نحن أمة عانت الكثير، وفقدت الكثير من أبنائها؛ حتى نالت كامل حريتها، وأنا لن أكون أداة ظلم وجور، فالتاريخ لا يرحم أحد سيد "جيف".
- التاريخ يفرق بين من يبني مجد أمته، ومن يبني مجده الشخصي، التاريخ ينصف الفارس الشجاع، الذي يسعى إلى رفع رايات الحق في بطون الظلم والباطل، ولا يرحم القائد الجائر الذي يبني أمجاده بدماء الأبرياء.

تأوه السيد "هنري" بأنفاسه المتعبة، ثم صاح بصوتٍ حانقٍ:

- نحن نحاول الخروج من هذا المأزق الإنساني الصعب، وتصويب أخطاء الماضي دون خسائر.

ضحك "جيف" بسخرية، ثم همس بتهكم:

- إذن علينا الاعتذار لمجرد الاعتذار سيدي السفير، دون أن نمحو قبح ما اقترفته أيدينا في حق ملايين الأبرياء، أهذا ما تعنيه سيدي السفير؟!

ساد صمت ملبد بالحنق جنبات المكتب الفسيح، ثم صاح "جيف" في وجهه بصوتٍ ضائقٍ:

- هل الاعتذار يُعيد من قتلوا ظلمًا؟!

ثم أردف بصوتٍ غاضبٍ:

- أخبرني سيدي السفير، لمن نعتذر؟!

همس السيد "هنري"، بصوتٍ خفيضٍ، محاولًا أقناعه بالواقع:

- لا شيء يعيد عقارب الساعة إلى الوراء سيد "جيف".
- سيدي السفير لا تسلك دروب الظلم، حتى ولو عجزت عن المضي قدمًا في دروب العدل.

اقتحمت "إلينا" المكتب بنظرة ذعر، أشار إليها السيد "هنري" بحركة هادئة بالخروج، خرجت وأغلقت الباب من خلفها، شعر "جيف" بالخجل من شدة انفعاله، ثم همس معتذرًا بصوتٍ خافتٍ:

- اعذرني سيدي السفير، لم أتمالك كبح جماح غضبي.
- صدقني سيد "جيف" أنا أعاني من ويلات تأنيب الضمير، مثلك.

افترش الصمت جنبات المكان، وبعد برهة نهض السيد "هنري" بهدوء، ووقف بجواره قائلًا:

- أتفهم وجهة نظرك سيد "جيف"، وأنا لا أرغب في الدخول في نقاشات حادة لا طائل منها، فأنا في المقام الأول رجل سياسة، وأبحث عن الحلول العملية والمجدية بأقل تكلفة ممكنة، وأؤمن بالحوار البناء وتبادل الأفكار للوصول إلى أفضل النتائج.
- أتفهم ذلك سيدي السفير.

فجأة، نادى السيد "هنري" على "جيف"، قائلا:

- سيد "جيف".

استدار "جيف"، ونظر إليه بفضولِ فاق الحد، ثم انصت إليه.

- هل لديك حلول غير الاعتذار؟!

تنهد "جيف"، وهمس بصوتٍ واثق:

- بالطبع لدي البديل سيدي السفير.
- إذن أخبرني به.

تناغم صوت "جيف" الرخيم خاشعًا وهو يسرد قصة "روهندا" و"يوجين" على مسامع السيد "هنري"، مُتوسلًا إياه تبني (فرنسا) جمع شملهما.. تأثر السيد "هنري" بشدة، وذرفت عيناه دمعة حزن على "روهندا"، ثم همَس بصوتٍ حزينٍ، مُعبّرًا عن مشاعره الدفينة:

- أنت محق سيد "جيف"، لذا دعني أرتب موعد مع سيادة الرئيس في أقرب وقت لمناقشة سبل تعزيز علاقاتنا مع الشعب "الرواندي" من خلال بحث إمكانية جمع شمل "روهندا"، و"يوجين".

١٢

بين الفينة والأخرى تمحق صرخات الماضي أوصالَ "يوجين"، وتحطم فرط أحلامه الحالمة بحياة هادئة، وتجبره على الركوض في دوائرها المتشابكة، وكلما همَّ بالهروب من دروبها الموحلة ناءت به ثقل أحمالها في وهدتها المؤلمة، وبين الفينة والأخرى يكافح فيوض آلامه، ويحاول إخفاء شعور اليتم في أحضان "بيرت"، ودفن كل ما يؤلمه في سلة مهملات حياته.. ظلَّ هكذا يجابه أنواء حياته المفعمة بالانعزالية، ويصارع مشاعره المتضاربة بين جذوره "الرواندية" ونشأته "الفرنسية"، حتى التقى بـ"جيف" الذي أطلعه على أسرار ماضيه، وأعاده إلى دروب الأمل من جديد؛ فحطّم قيود صمته الخانعة لغياهب حياته البائسة، وانطلق بين نهود الأيام مرتديًا سرابيل الأمل والرجاء، تعزف دموعه ترانيم الحنين والاشتياق إلى أمه "روهندا"، ويتلهف فؤاده إلى أفول ليل الدجى، وشروق صبح يلامس فيه جبين الوطن، وينفض من على تجاعيده غبار القتل والذبح، ولحدها في جب الصفح والغفران.

بات "يوجين" يتقلب على جمر الانتظار وعذاباته، ويترقب بفارغ الصبر لحظة عودته إلى أحضان وطنه، فتاهت خطواته بين الردفان، وجرته رغمًا عنه على أشواك لوعتها، حتى جاءت لحظة تحقيق جل أحلامه، حينما أخبرته "بيرت" بموعد عودته إلى وطنه الأم.. تهادت أنفاسه الغارقة في جب الانتظار بين أمواج الأيام حتى حان يوم سفره إلى (رواندا) في مساء اليوم الأخير من ديسمبر عام ٢٠٢٠م.. وفي تلك الليلة المشحونة بالمشاعر المتضاربة، بدأ الليل ينسج رداءه الأسود على أطراف مدينة النور، ويغطّي سماءها سحبٌ كثيفة ملبدة بالغيوم،

كأنّها وَدْقُ ثقيلٌ من الهموم والأحزان، وشق رقيعها هَزيم الرعد، كأنه صوت بوق أطلق صفيره إيذانًا ببدء تحرك موكب "السلام" من أمام قصر "الإليزيه"، حينها تحركت سيارة "بيجو" بيضاء تابعة للشرطة "الفرنسية" ببطء شديد، ثم تلتها حافلة "مرسيدس" قرمزية اللون تقل في طياتها مندوب الرئاسة الفرنسية "بول مارتن"، و"جيف" ورفقته، فجأة، توقفت الحافلة أمام باب قصر "الإليزيه"، وبدأ ركابها يتصارعون مع أجسادهم الواهنة وهم يلوّحون من خلف نوافذها العالية لتودّيع الرئيس الفرنسي "إيمانويل ماكرون".

مضى الموكب في طريقه وذاب في بطون شوارع (باريس) المزدحمة، حتى وصل إلى أسوار مطار "شارل ديجول" المزدانة بأعلام (رواندا) و(فرنسا)، وأروقته المكتظة بالحشود من كل حدب وصوب، توقفت الحافلة أمام مدخل المطار وترجل "بول مارتن" مهيبًا بكامل هيئته الرسمية، وراحت نظراته الثاقبة تتفحص وتتمعن كل تفاصيل المكان، وترصد انتشار قوات الشرطة وقوات التدخل السريع التي تأمن المكان، ثم أشار إلى "جيف" و"فوستن" و"هيلين" و"ويليام" و"بيرت" و"يوجين" ليُرافقوه.. ترجلوا جميعًا الواحد تلو الآخر، ثم التفّوا من حوله وأطرقوا السمع إليه وأنصتوا إلى كل تعليماته باهتمامٍ بالغ الحد، ثم مضوا جميعًا في أروقة المطار الفسيحة، حتى وصلوا إلى مكتب مدير المطار، التقوا بمندوب السفارة "الرواندية".. وبينما هم متجهون إلى صالة الانتظار، فوجئوا بسيلٍ عارمٍ من الصحفيين يحيطون بهم، وينهالون عليهم بوابلٍ من الأسئلة دون سابق إنذار، وكأنّ الأمر قد دبّر له مسبقًا، هرعت قوات الشرطة وطوقت المكان، وحاولت إبعادهم ومنعهم من الوصول إليهم، لكن دون جدوى، فجأة، اقترب

صحفي بدين الجسد قصير القامة من "جيف"، وسأله بصوتٍ غليظٍ جهوريّ:

- أخبرني سيدي، ما رأيكَ في دور (فرنسا) الإنساني في (أفريقيا)، وخاصةً في (رواندا)؟!

التزم "جيف" الصمتَ، ورفض الإجابة على أسئلته، فزاد إلحاح الصحفي للحصول على إجابة منه، لكن "جيف" ظل صامتًا.. وفي ذات الوقت، اقترب صحفي آخر من "يوجين" وسأله بحماسٍ شديد:

- صف لي مشاعرك وأنت عائدٌ إلى وطنك الأم بعد كل هذه الفترة؟

التزم "يوجين" هو الآخر بالصمت، فزادت الفوضى في أروقة المكان، وتدافعت حشود الصحفيين، واقتحمت السياج الأمني، وتعالتْ أصواتهم وتداخلتْ، محدثة ضجيجًا هائلًا، حاول السيد "مارتن" السيطرة على الموقف، فصاح بصوتٍ عالٍ:

- الرجاء الالتزام، وضبط النفس.

خيم صمتٌ قاتلٌ على المكان، توقف الصحفيون عن طرح أسئلتهم، وحركتهم الفوضوية، ونظروا إلى السيد "مارتن" مندوب الرئاسة الفرنسية بانتظار ما سيدلي به، لكنّه خيّب آمالهم، وهرول من أمامهم تاركًا إياهم في حيرةٍ وحسرة.. لم ييأس الصحفيون من الحصول على سبق صحفي، فاتبعوه كالنسور وهي تحلق خلف فريستها.. هرع مقدم برنامج "هنا فرنسا" الشهير بكل سرعته، وتزاحم بكل شراسة مع من حوله، حتى وصل إلى "جيف" وأمسك بتلابيب ملابسه بقوة، وطرح عليه كل أسئلته دفعةً واحدة بصوتٍ مرتفعٍ، فقد "جيف" زمام صبره، والتفت إليه بوجه شاحب وعينين تتأججانِ غضبًا، ولم يمهله فرصة استكمال حديثه، وصرخ فيه بصوتٍ حانقٍ:

- أرجوكَ، كف عن هذا الهراء.

انتشرت قوات التدخل السريع كالبرق، ودبت أقدامهم أرض المطار كالمطارق الحديدية، وسيطروا على الموقف، وفرضوا طوقًا أمنيًا حول الوفد، ثم رافقوه بخطوات سريعة نحو ممر الطائرة.. تناولتْ "هيلين" يد "بيرت" وركضتا صوب الطائرة كأنهما يفران من قاتل يلهث من وراءهما ولا يهدأ.. التفت "جيف" إلى هذا الحشد الهائل من أبواق ساسة بلاده، وأمعن النظر في وجوههم الجامدة، وتلاطمت مشاعره بين الغضب والحزن والاستياء، وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرةٌ، أخذ يتمتم ويحدث نفسه:

- نجتر نفس السؤال في المواجع، ونتساءل حائرين، كيف خدع القاتل أهل ضحيته بدموعه الزائفة، وكيف أقنعهم ببراءته؟! وكيف أوهمهم بأنه لم يزهق روحها الطاهرة؟! أو يغتصب شرفها، ولم ينهش جسدها الواهن بأنامله الملطخة بدمائها الزكية؟!

ارتجفَ صوتهُ يُلملم أوجاعه، فصاح في أسى:

- سحقًا للقتلة، وهم يغمرون أجساد ضحاياهم المسفوحة بسياط طغيانهم، بابتسامات الشفقة والرحمة، سحقًا لكل قاتل، ارتضى بأوهام الطغاة وخنع لهم.

وقف "يوجين" متجمدًا أمام الطائرة "البيونج" التي ستحمله إلى (كيجالي) وراح يتفحصها بنظراتٍ خائفة، ويتأمل هدير محركها الضخم، وأبوابها المفتوحة على مصراعيها كأبواب كهوف المجهول، تسارعت دقات قلبه، وارتجف جسده خوفًا وارتباكًا، وحين همَّ بالصعود، زادت رعشة يده.. وبعدما أغلقت الطائرة أبوابها، تولى السيد

"مارتن" تهدئتهم وإرشادهم إلى مقاعدهم، وتهيئة الأجواء إلى ما هو آتٍ.

جلس "ويليام" على مقعده بجوار "بيرت"، بينما ركضت "هيلين" نحو مقعد "فوستن" وأصرَّت على الجلوس بجوار "يوجين"، انسحب "فوستن" في هدوء أمام إصرارها، ثم جلس وحيدًا في مؤخرة الطائرة.. دوى صوت المذياع الداخلي في قمرتها:

- على السادة ركاب طائرة الخطوط الجوية "الفرنسية" رقم (٢٥٤٥) والمتجهة إلى (كيجالي) ربط أحزمة الأمان استعدادًا للإقلاع، تمنياتي لكم برحلة سعيدة، كابتن "جوليان بستييه".

تهادت الطائرة على ممر إقلاعها ببطء شديد، ثم اشرأبت إلى عنان السماء الملبدة بالغيوم، ورويدًا رويدًا ماجت في أمواج الليل الدامس.. هام "يوجين" على وجهه، وتفرَّس أفق الكون الهاجع تحت سطوة السكون، تجاذبت أفكاره، وتماهت مع ماضيه لعله يتذكر ملامح أمه "روهندا" التي بالكاد يتذكرها.. تجلت لمخيلته ذكريات وذكريات مخبأة في تلْفيف النسيان، تارة يتذكر معاناته الدامية من قتل أختيه "سارة" و"نيانا"، وظنه بفقدان أبويه "موليسا" و"روهندا"، وتارة أخرى يتذكر قريته (نجوما) التي تلاشت خلف تلال الوجع والحزن، تلفعت سحنته بالحزن وتمردت دموعه وفرَّت من أسرها، وحفرت مجراها على وجنتيه ورست على تلابيب ملابسه، وانتزعت تأوهاته من أعماق حلقه، تنبهت "هيلين" لآنينه الخافت، فأضاءت المصباح والتفتت إليه وتلمست وجنته الدامعة وكفكفت دموعه وربتت على كتفه، وهمست بصوتٍ رقيق:

- هون على نفسك يا "يوجين"، ولا تفسد لحظات الفرح ولا تسجنها في مأتم الحزن.

تنهدت "هيلين" من أعماق ترائبها، واتكأت برأسها على صدره، شعر "يوجين" بخفقان أنفاسها يتردد في ثنايا روحه، غمرته مشاعر من الهدوء والسكينة.. نظر في عينيها الصافيتين، تعلق بسحر جمالها الأخاذ.. اقتربت بشفتيها إلى وجهه وطبعت قبلة رقيقة على خده، ثم دنت منه أكثر فأكثر ولثمت شفتيه، تلعثم وتصبب جبينه عرقًا، لكنه استسلم لها، انكبت على شفتيه بقبلات حارة ودثرته بذراعيها، وهي تئن أنينًا خافتًا، ثم ألقت بخدها على خده، وهمست بصوتٍ مُتيمٍ:

- لم يعد بوسعي كبت مشاعري تجاهكَ، يا "يوجين"، فقلبي الثائرُ يصرخ بحبّك، وعواطفي الجياشة تعلنُ عن نفسها دون خجلٍ أو مُواربة، فكلّ ذرّةٍ في كياني تُنادي باسمك، ونبضاتُ قلبي ترددُ لحنَ حبٍّ لا يُقاوم، أُحبّكَ أيها الطيب، أُحبّكَ أيها الخجول، أُحبّكَ بكلّ مشاعري وأحاسيسي.. أُحبّكَ.. أُحبّكَ.

ارتسمت على محياهُ خيوطُ الخجل، وغامت عيناهُ خلف سحابةٍ من الحياء، وتلعثمت شفتاهُ، ثم همس بصوتٍ مرتعشٍ:

- وأنا أحبكِ أيها الشقية، حبًّا لا يُوصف.

صغت أذناها إليه، فاحتجَّت عليه وصاحت فيه:

- هل نطقت بها أيها الخجول؟ أجبني!

ارتجف جسده ارتجاجًا خفيًا من شدة خجله يؤكد لها اعترافه، لم تتمالك نفسها من شدة فرحتها، انهارت دموعها، وصرخت بصوتٍ مبحوحٍ:

- أخيرًا نطقت بها.. أخيرًا نطقت بها، أيها الطفل الخجول.

عانقته وكأنها بركانٍ ثائر يُلقي بحممه في عُمقِ محيط غائر، ترجاه بصوتٍ خافتٍ.

- أرجوكِ أهدئي.

لكنها انطلقت مسرعةً في ممرات الطائرة وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ ملفت أيقظ النائمين من سباتهم، خاصة "بيرت" التي تغطّ في نوم عميق، فانتفضت مفزوعة تناديها بصوتٍ غائرٍ:

- هل أنتِ بخير يا "هيلين"؟

- نعم، يا أُمَّاهُ، أنا بخير، وقد نجحت خططنا وحققت هدفها.

تظاهر "جيف" بالنوم، ورفَّ بعينيه يراقب ما يدور من حوله في صمت، ثم همس بصوتٍ خافتٍ:

- هكذا هي الحياة تولد من رحم الموت، وهكذا هو الأمل يصارع اليأس ليبقى على واقفًا على صفحة الحياة.

غمرت السعادة قلوبهم المتأرجحة بين ذكريات الماضي وآمال المستقبل، وشيئًا فشيئًا غفت أجسادهم المنهكة، تاركة وراءها هموم الأمس، وأحلام الغد، وبمجرد أن اقتربت الطائرة من سماء (كيجالي)، انقضت أحلامهم على صوت الكابتن "جوليان بستييه" الغليظ وهو يصيح:

- الرجاء من السادة الركاب ربط أحزمة الأمان استعدادًا للهبوط.

حطّت الطائرة "البوينج" التابعة للخطوط الجوية "الفرنسية" رحالها بمطار (كيجالي)، وفور فتح أبوابها، وقف السيد "بول مارتن"،

وسط قمرتها، وهمس بصوته الرقيق معبرًا عن عمق مشاعره تجاه معاناة أبناء الألف تلة، قائلًا:

- نمدُّ أيدينا بكلِّ إخلاصٍ إلى هذا الوطن الحبيب، ونسعى جاهدين لمداواة جراحه العميقة.. فإننا جميعًا مدينون لهذا البلد الذي مزقته وأنهكته الحروب والصراعات الطائفية بالاعتذار، وأننا نعلم جيدًا أن الاعتذار وحده لا يكفي لِمحو آلام الماضي، لكننا عازمون على بناء مستقبلٍ جديدٍ نتجاوز فيه كلَّ آثار تلك الحقبة السوداء.

هرول السيد "مارتن" إلى "جيف" وربت على كتفه بحنوٍ وامتنان، مُعبِّرًا عن عميق تقديره، قائلًا:

- وبلادي لا تنسى أبدًا أبناءها الأوفياء، أمثال السيد "جيف"، الذي ضحّى بكلّ عزيزٍ وغالٍ من أجل رفعة قيمنا الإنسانية، وأنا كفرنسيّ أشعر بالفخر العظيم لما أنجزه، وسيبقى اسمه محفورًا بحروفٍ من نورٍ في سجلّ التاريخ الإنسانيّ.

أنهى "مارتن" كلماته المفعمة بالمشاعر الطيبة وهمّ بغادرة الطائرة، أعقبه "ويليام" و"بيرت" و"جيف" بخطى سريعة، لكن "يوجين" و"هيلين" و"فوستن" ظلوا عالقين عند بابها، لا يريدون مغادرتها، أخذت نظراتهم الحائرة تتجول في أرجاء المكان وتتفحص كلّ ركنٍ وزاويةٍ.. ورويدًا رويدًا خطت أقدامهم درجات السلم، كأنها تُقاوم رغبتهم الجامحةً في البقاء عالقين في الهواء، وبعد برهة من الترقب والانتظار، ترجلوا جميعًا كجسدٍ واحدٍ، وكأنّ شيئًا ما يدفعهم دفعًا نحو الأسفل، وبعد صراع مرير مع خوفهم؛ لمست أقدامهم تراب الوطن.

ارتابت "هيلين" وتلاطمت مشاعر الخوف بأعماقها، ارتجف جسدها، شحب وجهها، وتسارعت خفقات قلبها، كأنها طائر سجين في قبضة شباك صياد، يئن ويرفرف بأجنحته يائسًا.. تشبّثت بذراعي "يوجين" و"فوستن"، وتمعَّنت النظر بعينيها الخائفتين في وجهيهما، فلم تَجِدْ في عينيهما سوى المزيد من الخوف والرعب، وكأنَّ وحوش الماضي وجوارحه تطاردهم، وتحاول الانقضاض عليهم من كل حدب وصوب لتفتك بهم وتمزّق أجسادهم.

ركضت "هيلين" صوب قمرة الطائرة، كأنها تبحث عن مأوى يحميها من هواجس خوفها، أمسك بها "يوجين"، وهمس في أذنيها قائلًا:

- لا تخافي يا "هيلين"، أنا معكِ.

انتابتْها مشاعر متناقضة، ما بين الفرح والحزن، ما بين الطمأنينة والخوف، وكأنّ كلّ ذرةٍ من تراب الوطن تُلامس شغافها وتُحيي مشاعر دفينة في أعماقها.. اختلطت دموعها برجافات الوجل، أسرعت "بيرت" إليها وداعبت خصلات شعرها المنساب على كتفها، وهمست بصوتٍ رءوف:

- لا تخافي يا صغيرتي، سنواجه كلّ الصعاب معًا.

أجابتها "هيلين" بصوتٍ باكٍ تحاول مراوغة أنفاسها المتعبة:

- أنا مشتاقة إلى حضن الوطن، يا أُمَّاهُ، كي يلملم ما تناثر من فتات أوجاعي وخوفي، لكنّي خائفة من تبعات الماضي.

غمرتها "بيرت" بنظراتها الحانية، وربتت على كتفها، حتى هدأت أنفاسها المضطربة، واستعادت بسمتها المعهودة، ثم ربطت على قلبي

"يوجين" و"فوستن"، وبعد برهة ترجلوا جميعًا بصحبة السيد "مارتن" والسفير "الفرنسي" إلى الرواق المؤدى إلى صالة كبار الزوار المكتظ عن بكرة أبيه بجموعٍ غفيرةٍ من الشعب "الرواندي".

وقف "يوجين" وسط الرواق ينظر في دموع أبناء جلدته، انهمرت دموعه من رهبة الموقف وعظمته، وراح يلوح بكل ما أتي من قوة فرحًا وابتهاجًا لعودته إلى أحضان الوطن، هرولت "هيلين" من خلفه وشاركته فرحته.. فجأة، هرعت طفلةٌ صغيرةٌ من خلف السياج الأمني تحمل ببراءتها باقة ورد بيضَاء حبًا وسلامًا على أروح الضحايا، ثم اقتربت من "هيلين" وارتمت في حضنها، كأنّها تناجيها بأنشودة حبٍّ من قلب الوطن.. في خضم تلك اللحظات المُزهرة بالضحكات والعبرات ظهر وزير الثقافة "الرواندي" برفقة السيدة "جانيت كاجامي"، وبمجرد أن رأت "يوجين" و"هيلين" و"فوستن"، هرولت إليهم وارتمت في أحضانهم، وانغمرت في بكاءٍ مرٍّ، صاحت الحناجر وصدحت القلوب وتغنت بحب الوطن، وفرحًا بعودة أبنائهم بعد طول غياب، وانتصارًا للحياة على طواغيت الموت.

وسط هذه الأجواء المفعمة بالبهجة والسعادة، انتهت مراسم استقبال وفد "السلام".. فاصطحب السيد "مارتن" الوفد المرافق له إلى قاعة كبار الزوار لحين الانتهاء من كافة ترتيبات السفر إلى (نجوما).. وبينما كان الجميع يسيرون بخطواتٍ هادئة، اندفع "جيف" بخطواتٍ متسارعة، متخطيًا الحشودَ، وعيناه تبحثان بشغفٍ عن الطبيب "أوجين" فجأةً، التقيا في عناقٍ حارٍّ، ثم صاح "جيف" بصوتٍ غارقٍ بالامتنان والحبّ:

- كم أنا مشتاق لرؤيتك، أيها الطبيب الطيب.

غلبت دموع الطبيب "أوجين" مشاعره، وفاضت على وجنتيه، وهمس بصوتٍ مخفوق بالفرحة والبكاء:

- منذ رحيلكَ سيد "جيف"، كانت تراودني هواجس أصولك "الفرنسية"، لكنّ مكالمتك الهاتفية التي بشرتني بقدومك كانت ترياقًا شافٍ لجراحَ نفسي وهواجسها، بعدما ظننتُك قد نسيتَني، ونسيت قضيتنا.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه "جيف"، وهمس ضاحكًا:

- كيف أنسى رجلًا كريمًا مثلك أيها الطبيب الطيب؟! كيف أنسى كل ما قدمته لي من دعم ومساعدةٍ؟! من المحال أن ينسى المرء من أسدى إليه معروف.

تنهد "جيف" بعمقٍ، وجال بنظره في أرجاء القاعة يبحثُ عن الأب "أرنست"، ثم سارعَ بسؤالِ الطبيبِ "أوجين" عنه بلهفةٍ:

- أين هو الأب "أرنست"؟ لقد اشتاقت روحي لرؤيته والتعرّف عليه.

جال الطبيب "أوجين" بنظرهِ في أرجاء القاعة وتفحصها بعينيه الثاقبتين وتنقَّل بنظرهُ من ركن إلى آخر يبحث عن الأب "أرنست"، مضت برهة وهو ما زال يبحث عنه دون جدوى، فجأةً، وقع بصرهُ عليه وهو مُمدد الجسد في أقصى القاعة، رفع صوتَهُ صارخًا وهو يُشيرُ إليه بيدِهِ:

- ها هو ذا الأب "أرنست"!

وقف "جيف" يراقب محيطهُ بعينٍ هادئة، حتى لفت انتباهه شخصٌ يلوح إلى الطبيب "أوجين" رفعَ وجهه ونظرَ إليه بتمعُّن، وعندما تأكّدَ

مما رآه، ارتسمتْ على وجههِ ابتسامةٌ رقيقة، وصرخ ينادي بصوتٍ عالٍ:

- أيها الأب "أرنست" أنا "جيف".

انطلق الأب "أرنست" كشهاب محترق حتى انطفأ في أحضان "جيف"، عانقه وهو يصيح فيه:

- فقدتُ الأمل في رؤيتكَ سيد "جيف"، لكنها الأقدار تجمعنا وقتما تشاء.
- وأنا أيضًا كنت أتوق لرؤيتك أيها الأب الورع.

انفرجت شفتا "جيف" عن ابتسامة رقيقة، وصاح:

- حسنًا دعونا من هذا الحديث ونحوه جانبًا، فأنا لديّ مفاجأة رائعة لكما!

رافقهما بخطواتٍ سريعة حتى وصلا إلى "يوجين"، ثم نادى عليه بصوتٍ خفيضٍ:

- " يوجين".. " يوجين".

التفت "يوجين" إليه بفضول ودهشة، ثم هرول أليه، ووقف منصتًا، فأشار "جيف" إلى الطبيب "أوجين"، قائلًا:

- هذا هو الطبيب "أوجين"، الذي حدثتك عنه كثيرًا، يا "يوجين".

ابتسم "يوجين" وصافحه قائلًا"

- سعدت بلقائك سيدي الطبيب "أوجين".

ولَّى "جيف" وجهه شطر الأب "أرنست"، ثم أردف قائلًا:

- وهذا الأب "أرنست"، راعي كنيسة (نجوما)، القائم على شئون السيدة "روهندا".

نهشت الحيرة لبابة قلبه، فشرِد بعينيه في قسمات وجه الأب "أرنست"، كأنَّه يبحث عن إجابات تائهة في ملامحه، ثم مدَّ يده إليه وصافحه، وهمس بصوتٍ خافتٍ، كأنّه يحدث نفسه، طارحًا سؤالًا محيرًا:

- هل التقينا من قبل أيها الأب "أرنست"؟!

نظر الأب "أرنست" إليه، ثم أومأ إليه بالنفي، لكنه همس بصوتٍ تائه في غياهب الذكريات:

- لا، لكنّني أشعر بغير ذلك، وكأنني رأيتك من قبل.

انخرط "يوجين" في نسج خيوط حبال أفكاره، وغاص في أغوار ذكرياته، تاركًا ذاته الحائرة للوصول إلى مبتغاها:

- أراك تعتني بالسيدة "روهندا"!!
- وكيف لا أعتني بالأم "روهندا" وأُجْحِدُ نفسي في رعايتها، وهي التي أُغْدِقَتْني بحنانها وعطفها بعد رحيل أمي؟
- وأين أولادها؟ لم أرهم هنا!

اغرورقت عينا الأب "أرنست" بالدموع، وتلفحت سحنته بالحزن، وأجابه بصوتٍ شجي:

- للأسف، قتلوا جميعًا في المجازر.
- قتلوا؟!
- نعم قتلوا.

- كيف قتلوا؟!
- قتل "يوجين" وأختاه "نيانا" و"سارة" في المجاز، ولا نعرف كيف ولا أين، لكنهم بكل تأكيد قتلوا جميعًا.

اغرورقت عينا "يوجين" بالدموع، وبدأ رويدًا رويدًا يستعيد ذاكرة الماضي، تفرّس في وجه الأب "أرنست" وسأله:

- هل أخبرتني عن قصة صخرة الملك "يوجين"؟

هُبَّ الأب "أرنست" من مكانه مفزوعًا، وقد تسعت عيناه، وهمهم بصوتٍ يختنق بالدهشة، ثم صاح في وجهه بصوتٍ حائر:

- من أخبرك بسر الصخرة؟! أجبني.
- سمعتها من السيد "جيف"، لكنّني أتحرق شوقًا لسماعها منكَ أنتَ، أيها الأب.

رفع الأب "أرنست" رأسه إلى عنان السماء، وتاهت روحه في دهاليز الذكريات، وقد تملَّكته مشاعر الحنين والاشتياق إلى بساتين الطفولة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة ممزوجة بالحزن والأسى، ثم همس بصوتٍ هادئ:

- في ضواحي قريتي الجميلة تتربع تلالها الخضراء شامخةً، وفي أحدى سفوحها توجد صخرة ضخمة تشبه عرشًا ملكيًا، ويقبع خلفها كهف غامض كان يشعل خيالنا الطفولي بأساطير أسلافنا الأولين.. وكانت لهذه الصخرة مكانتها الخاصة في قلوبنا، فكنا نلعب ونختبئ في كهفها، وننسج قصصًا خيالية تُغذي أحلامنا بمستقبل مشرق.. وفي ذات يوم من الأيام، اجتمعنا كالعادة خلف الصخرة، وقررنا لعب لعبة "الحكم"، واتفقنا على تنصيب

"موامي" للقرية، فوقع الاختيار بالأجماع على "يوجين" ليكون ملك مملكتنا، ومنذ تلك اللحظة أصبحت الصخرة رمزًا لمملكتنا الصغيرة، ولقبناها بـ"صخرة الملك يوجين".

ابتسم الأب "أرنست" ابتسامة خافتة، ثم أردف قائلًا:

- نحتنا ميثاق حكمنا على صفحة الصخرة، وحلمنا بوطنٍ يسع أحلامنا الغضة، لكن الملك "يوجين" أهمل مملكته، ولم يهتم بشئونها، وأسلم زمام نفسه للهوى، وغرق في حب أميرته الجميلة بنت الجيران، تاركًا إيانا نلعب ونحلم بمفردنا، تحت وطأة إهماله.

تنهد الأب "أرنست"، وأردف قائلًا:

- كبرنا، وتغيرت نظرتنا تجاه الصخرة، فهي لم تعد رمزًا للسلطة أو اللعب كما كنا نظن في صغرنا، بل أصبحت تذكرنا ببراءة الطفولة، وبماضٍ مليء بالمرح والأحلام البسيطة، وكهفها الغامض ما زال يراود أوهامنا بحكاياته المخيفة.

ابتسم "يوجين" وناوشه قائلًا:

- أتتذكر اسم أميرة الملك "يوجين" يا "أبانو"؟!
- بالطبع، أتذكر الأميرة "تاني" الجميلة.

تلعثم الأب "أرنست"، واستفاق من غفوته، وهيامه في ذكريات الطفولة، وشذر إليه بغضب، وصرخ فيه:

- من أنت، وكيف عرفت اسمي الحقيقي؟!

غصّ "يوجين" بريقه، ثم وقف أمامه ووضع يديه على كتفيه، وهمس بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا صديقك "يوجين" يا "أبانو".

هزَّ الأب "أرنست" رأسه منكرًا حديثه، وعيناه تتراقصان في محجريهما كأنهما تتبعان أشباحًا، وقد انتابته نوبة هذيان:

- لا! "يوجين" قتل.. قتل، وأنت مخادع وكاذب!!

دنا "يوجين" من وجهه وحاول معانقته، لكنه فرَّ من بين يديه، وهرع إلى "جيف" وهو يتمتم:

- لا! "يوجين" قتل.. قتل.

أمسك به "جيف"، وحاول تهدئته، ثم همس في أذنيه قائلًا:

- هون على نفسك، وانظر إلى قسماته المحفورة بداخلك، ستجده "يوجين" حقًا.

مادت به الأرض شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا، ثم سقط مغشيًا عليه، هرول إليه الطبيب "أوجين" وأسعفه.. فاق الأب "أرنست" من غشيته وراح يتأمل وجه "يوجين" المتشح باصفرار الخوف قائلًا:

- بالله عليك، من أنت؟!

- أنا جاثوم الماضي، ورؤية الحاضر، والحقيقة التائه في دروب اليأس يا "أبانو"، وأنت الصديق الوفي.

تلمس الأب "أرنست" قسمات وجهه، وهمس بصوتٍ باكٍ:

- أأنت حي؟!

- نعم أنا حي.

نهض الأب "أرنست"، وانهمر في البكاء، وعانقه عناقًا حارًا، داعبه "يوجين" قائلا:

- كيف حال صخرة الملك "يوجين"، أيها الجندي المشاكس؟

ضحك الأب "أرنست"، وأجابه:

- كلما أشتاق إلى ملكها أذهب إليها.

صمت "يوجين" برهة، ثم دنا منه وسأله بشغف:

- وكيف حال أمي.

- هي بخير.

وبينما هما يتبادلان أطراف الحديث في جوٍّ حميم يضجّ بالمشاعر، خيّم صمتُ قاتل، وفُتِحَ بابُ القاعة على مصراعيه فجأة، ثمَ دخُلَ مندوب الرئاسة الفرنسية "بول مارتن" برفقة السفير "الفرنسي"، ينادى في الحضور بصوتٍ جهوريٍّ:

- من فضلكم الانتباه! نود إعلامكم بأننا قد انتهينا من كافة الإجراءات والترتيبات، وسنتحرك فورًا إلى قرية (نجوما)، فالرجاء الالتزام بالتعليمات.

تعالت صيحاتُ الفرحِ والتهليلِ، وارتسمت ابتساماتُ الأملِ على وجوه الحاضرين، كأنّ نسماتِ الأملِ قد هبتْ على ربوع (نجوما)، وفي غضون بضع دقائقَ، اصطفّتْ سياراتُ الموكبِ أمامَ المطار، وبعد برهة بدأَتْ رحلةُ وفد "السلامِ" تُشقُّ طريقَها صوبَ قريةِ الأم "روهندا".

تعلق فؤاد "فوستن" شوقًا لجمال بلادهِ طاف بنظراته الزائغة يتأمل روعة تلالها الخضراء، وروعة غاباتها الكثيفة، ونقاء سمائها الصافية.. ظلّ "فوستن" مشحوذ البصر يتأمل جمالها، حتى لاحت سفوح تلال (نجوما) المزدانة بأشجار الموز المتمايلة مع نسمات الهواء العليل، فارتسمتْ على محياه ابتسامةٌ رقيقةٌ.

اقتربَ الموكبُ من مشارفِ قرية (نجوما)، ولاحتْ في الأفق أسطحُ بيوتها القرميديةِ وهي تَتَلألأُ تحتَ أشعةِ الشمسِ، وفورَ دخولِ دراجاتِ الشرطةِ البخاريةِ إلى شوارعها الضيقةِ، حدثتْ جلبةٌ عظيمة، هرع على أثرها أهلُ القريةِ خلفَ الموكبِ في دهشةٍ وفضولٍ لاستجلاء الأمر.. توقفت سيارات الوفد في ساحة القرية وقد أحاطها أهالي القرية.. ترجل "بول مارتن" والسفير "الفرنسي" إلى الساحة، وبدأت قوات الشرطة المصاحبة للموكب الانتشار وتطويق المكان، تحسس "يوجين" خطواته المثقلة بالشوق والحنين إلى أمه، وراحت نظراته تشمل المكان، وأصوات الماضي تناوش أعماقه، فضاقت أجنانه، وانحسرت دموعه، وتسمر مكانه، لكن الأب "أرنست" ركض إلى بيت "روهندا" وطرق بابها، وظل يطرقه، حتى خرجت إليه وهي تلملم ثيابها، وتخرز بعينيها الناعستين في قسماته، وتحدق النظر في الحشود فتراء لها "جيف" واقف بين الحشود، فهمست تسأل الأب "أرنست" في حيرة:

- أهذا هو السيد "جيف"؟!

- نعم يا أمه، إنه هو.

انشرحت أساريرها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة، ثم لوحت له، فهرول إليها، وارتمى في أحضانها، ثم همس في أذنيها بلوعة الاشتياق:

- عدت إليكِ يا أختاه، وفاءً بوعدٍ قطعتهُ على نفسي، وهأنا بين يديك من جديد أرتجي الارتواء من حكمتك.

اهتزت بجسدها، وقبضت على راحتيها ولوحت في الهواء في تباهٍ بما أنجزته، ثم همست بصوتٍ شجاعٍ:

- أخذت بنصيحتكِ سيد "جيف"، وحاربتُ خوفي، وواجهتُ الوغد "كابوجا"، وأفشيتُ سره الذي أثقل كاهلي طيلة سنوات الماضي.

تعجب "جيف"، وصاح بصوتٍ يملأه الشك:

- أحقًا!! واجهتِ الوغد!!
- نعم، واجهته بكلّ جَرأة وثبات، وأخمدتُ أصوات الخوف بداخلي، فَلَكَ مني كل الشكرُ، بعد أن دفعتني دفعًا إلى مُواجهة خوفي، وغرست الشجاعة في قلبي الواهن.

وقف "يوجين" يتأمل ملامح أمه الشاحبة، التي بدت عليها آثار التعب والسهر، وراحت عيناه تتبعان خطوط تجاعيدها التي حفرتها سنوات عذابها على جبينها.. انهمرت دموعه الحارقة تزخ على وجنتيه الباردتين، كأنهما شلالان من الثلج الذائب يطفئان لهيب اشتياقه.. حاول الركض إليها وقلبه يدق كطبول الحرب في صدره الضيق، لكن ساقيه تيبستا كأنهما من الرصاص، تعثّر وكاد يسقط، إلا أنه تماسك ونهض من عثرته، وهو يصرخ بصوتٍ دامع، ثم اندفع نحوها بلا وعي، كعصفور يهرع إلى عشّه خشية الموت، ارتمى في حضنها وضمها بقوة كأنه أراد أن يذوب فيها، ثم جثا على ركبتيه يتوسد تراب قدميها.. لحقه "فوستن" و"هيلين"، فارتموا جميعًا في أحضانها، وهم يبكون بحرقة، كأن السماء قد انشقت عليهم، وأنين بكائهم يمزق ضجيج المكان كالرعد.. وقف "يوجين" أمامها وهو يتنهَّد من أعماقه، ويمسح دموعه بأنامله المرتجفة، ثم همس يناجيها بصوتٍ متقطع:

- أ.. مي، أم..ي، أمي!!

تحيرت "روهندا" من تصرفاتهم المتناقضة، وتجنبت النظر إليهم خوفًا أن تفضح عيناها ما يخالجها من مشاعر متضاربة، أشارت

بصمت إلى الأب "أرنست"، وانتظرت منه ردة فعله.. لكن أنين ونحيب "يوجين" الحزين مزق قلبها، وكان كفيلًا بأن يزيد حيرتها وقلقها، فلم تعد قادرة على التفكير، أو فعل شيء، ناداها "يوجين" بصوتٍ رهيفٍ:

- أمي... أمي.

ضاقت أنفاسها من هول الموقف، وحاولت كبت مشاعر الأمومة بأعماقها، ومُقاومةً رغبتها العارمة في عناقه.. اقترب الأب "أرنست"، ودنا منها، ثم همس بصوتٍ حنونٍ:

- قد يُجزلُ الله العوضَ عن كل بلاءٍ، يا أُمَّاهُ.

ثم أمسك بـ"يوجين"، وتفرس في ملامحه، وأردف قائلًا:

- يا أُمَّاهُ، ماذا لو أخبرتك بأن الأقدار كانت رحيمة بكِ وبنا، وماذا لو أخبرتك بأن هذا هو "يوجين"؟

انكفأت "روهندا" إلى الوراء، وغمغمت تهذي:

- كيف تعود الأموات إلى الحياة؟!

تلاطمت مشاعرها بين الفرح والحزن والشكّ، وفرت من بين أيديه، وركضت إلى وسط الساحة، هرول "يوجين" خلفها، وأمسك بتلابيبها، وأجلسها على صعيد الأرض، وضّمها إلى صدره في عناقٍ مُمزوجٍ بالبكاء، وهمس بصوتٍ مفعمٍ بالحنين:

- هذا جزاء صبركِ يا أُمَّاهُ، لقد عوضكِ الله عن سنوات الألم والفقد.

خفق قلبها وتسارعت أنفاسها، وهمست بصوتٍ خافتٍ يرتعش من البكاء:

- "يوجين" ابني حيٌّ؟!

رفع "يوجين" رأسه عاليًا، ونظر في عينيها، وأجابها بصوتٍ باكٍ:

- نعم يا أُمَّاهُ، أنا حيٌّ وماثل بين يديكِ.

فجأة، اجتاح "يوجين" سيل من الحزن والأسى، وصرخ وهو يحدق في صورة أبيه التي تزين قلادتها:

- إنها صورة أبي "موليسا".. نعم، أنا أتذكره جيدًا.. أين هو يا أُمَّاهُ؟

نهضت "روهندا" وهي تبكي وتصرخ، كأنها تحاول كسر قيود المستحيل:

- نعم، أنت "يوجين"، وتشبه "موليسا" كثيرًا، نعم، أنت تشبهه كثيرًا.

توقفت عقارب الزمن برهة حينما تعلقت "روهندا" بِعُنقه، وكأنّها تُحيط به بحبالٍ من وقيد الصبر، وتشدّه إلى أعماقها بقوةٍ لا تُقهر، ظلَّا متعانقين، حتى دنت "هيلين" بخطواتٍ خفيفة، وجذبته من بين يديها، وصرخت فيه:

- هذا يكفي، ودعنا نشارك أمي فرحتها.

انزوت "هيلين" في حضنها، وتكورت بجسدها الواهن كطائر يبحث عن الأمان من المطر، ثم غاصت في صمتٍ عميق، كأنّها تلملم شتات مشاعرها المبعثرة كأوراق الخريف المتساقطة، فجأة، همسَت بلهجة مفعمةً بالحنين:

- أمي، يُقال إنَّ القمر في اكتماله يزهر جمالًا، ولطالما شبهني من حولي بسحره الأخَّاذ، كأنَّني انعكاس لجماله، فهل حقًّا أنا أشبه جمالك؟!

ضحكت "روهندا" من أعماق قلبها، ونظرت إلى "يوجين" و"هيلين" بنظرةٍ مليئةٍ بالحبّ والحنان، قائلةً:

- بل أنتِ جميلة جميلات قلبي.

همس "يوجبن" قائلًا:

- إنها "هيلين" يا أُمَّاهُ.

صاحت "هيلين" في وجهه بصوتٍ راعد:

- "هيلين" وحسب يا "يوجين".

أحمرّ وجهه خجلًا، فما كان منها إلا أن صاحت فيه، وفي الملأ:

- وحبيبته أيضًا يا أُمَّاهُ، هو نور عيني، وأغلى ما أملك في حياتي.

ضحكت "روهندا"، وهمست ساخرة من خجله:

- أنه يشبه أباه حتى في خجله، وها هي قصة "روهندا" و"موليسا" تتكرر.

نادى "يوجين" بصوتٍ عالٍ على "فوستن"، و"بيرت"، محاولًا الهروب من سخافة موقفه، فاقتربا، ثم أردف قائلًا:

- وهذا أخي ورفيق دربي "فوستن" يا أُمَّاهُ.

ضمّته إلى صدرها كأنّها تريدُ إخفاءه عن العالم، ثم همسَت في أذنيه بكلماتٍ مُفعمةٍ بالحبّ، كأنّها تُذيبُ ثلوجَ قلبه البائس:

- وهو ابني مثلك، يا "يوجين".

انحنى "يوجين" قليلًا، والتقط يد "بيرت" بلطفٍ، وطبع قبلة عليها، ثم همس بصوتٍ خاشعٍ يفيض بالاحترام والإجلال:

- وها هي أمي الحنونة "بيرت"، التي غمرتني بحبّها ورعايتها، وتولت مسئولية تربيتي.

مضت "روهندا" إليها بخطواتٍ هرمة، وابتسمت ابتسامةٍ رقيقة، وحاولت تقبيل جبينها، لكن "بيرت" رفضت بلطفٍ قائلةً:

- أيتها الأم العظيمة الصابرة، يطفح قلبي فرحًا برؤيتكِ، فصبركِ الجميل نور يضيئ دروب البائسين، وها أنتِ تجنين ثماره، فشكرًا لكِ من أعماق قلبي.

تشبّثت "روهندا" بعنقها، وعيناها غارقتان بالامتنان لكل ما قدَّمته إلى "يوجين".. فجأة، هزّ صخبٌ زاعق هدوء المكان، التفتت "روهندا" إلى الوراء، فوجدت "كابوجا" يتدلَّى من بين عنقي ابنيه "موهيري" و"ندوري" وقد أنهكه وأهلكه المرض حتى بدا كظِلٍّ هزيل.. مضى "يوجين" نحوه بخطواتٍ حذرة، مُصغيًا لهمسِ أهل القرية وهم يصيحون:

- أفسحوا المكان لـ"كابوجا"، أفسحوا له المكان.

تردد اسمه في أذنيه، طاف بذاكرته، حتى استحضر صورته وهو يداعبه في طفولته، هرع إليه دون تردد، لكنه توقف، فجأة، عند عتبته يحدق فيه ويتشرب منه رائحة أبيه؛ التي تذكره بأجمل أيام طفولته، صرخت "روهندا" تناديه:

- "يوجين".. "يوجين".

هرول إليها، وقد غشاهُ القلقُ، وتزاحمتْ في عقلِهِ تساؤلات محيرة، قائلًا:

- أمي، أليس هذا هو العم "كابوجا" صديق أبي؟!

انتفخت أوداجها كحبال مشدودة، وتصلبت ملامحها كقناعٍ حجري، وارتسم الغضب على تجاعيد وجهها كسحابة رعدية، وصرخت فيه بصوتٍ أجشٍ كالرعد.

- بل الوغد الذي قاتله.

ارتعشت شفتاه، وتأججت عيناه غضبًا كالجمر، وانطلق نحوه كالنمر الهائج، عازمًا على الانتقام لأبية، لكن "روهندا" وقفت في طريقه سدًا منيعًا، ووضعت يدها بقوة على كتفه، وصاحت فيه بصوتٍ حادٍ:

- يكفينا ما سال من دم، يا بني.

زأر بغضبٍ شديدٍ:

- سأقتله وأثأر لدم أبي.

صاحت فيه تستجديه:

- يا بني، لا تصبّ زيت الانتقام على نار الفتنة من جديد، أرجوك أهدأ، وثق أن العدل سيسود، وأن عدالة السماء ستأخذ مجراها.

لوح "كابوجا" لابنيه "موهيري" و"ندوري" ليمضيا قدمًا نحو "روهندا"، حتى وقف أمامها مصلوبًا، ثم نادها بصوتٍ سقيمٍ:

- "روهندا".. "روهندا".

شهق بصعوبة بالغة، ثم تلكأ بصوتٍ واهٍ مُنهك:

- هأنا أسكن بين يدي الموت، والروح ترتجي السلامة الأبدية.

بكى بكاءً مريرًا، وصاح يتأوه من الألم:

- ألم يأن أوان الصفح والغفران، يا "روهندا"؟!

وقف "يوجين" بين يديها، وهو ينفث غضبه، فتجمدت الدماء في عروقها، وتطايرت نظراتها الخائفة من ردة فعله الحمقاء، فأمسكت بيده وصاحت فيه تذكره:

- ماذا سنجني من الانتقام يا "يوجين"، سوى انتقام مثله، يا بني اترك الماضي يمضي بعذاباته.

اقترب "كابوجا" منهما، وتوسَّل إليهما في ذلٍّ وانكسارٍ:

- اصفحا عن رجل سقيم ذليل القلب والرجاء.

نظرت "روهندا" إلى "يوجين"، وإلى جموع أهل القرية، ثم هرولت نحو "كابوجا"، وتنهدت تنهيدة عميقة من أعماق صدرها، ومدت يدها المرتعشة نحوه، وأشارت إليه بإصبعها وهي تصرخ فيه بصوتٍ يقطر ألمًا:

- لن أصفح عنكَ أيها الوغد العفن، لن أصفح عنك.. لن أصفح عنك ما حييت، أفهمت، لن أصفح عنك.. لن أصفح عنك.

ظلت تصرخ في وجهه السقيم، فنظر إلى السماء وهو دامع العينين، مكسور القلب، ثم شهق شهقة سقيمة، وشخص بصره، وتراخت يداه، وسقط على الأرض بلا حراك، وقد قضى نحبه، فحمله أهل القرية على أكتافهم وانصرفوا يواروا سوءته.. التفَّ "يوجين" و"هيلين" و"جيف" و"ويليام" والأب "أرنست" والطبيب "أوجين" و"بيرت" و"فوستن"حول "روهندا" في جوّ من السعادة.

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ

هِيثَمُ القَليوبِي